

محمود ديمحور

الزيت الأولي

دار النشر الحديث

١٩٣٧

كلمة تصدير

أعتقد أن لكل كاتب مراحل يجتازها في حياته العقلية ، تختلف باختلاف تطوره الفكري . ويخيل لي أن الفترة التي أخرجت فيها مجموعاتي القصصية الأولى : الشيخ جمعه ، وعم متولي ، والشيخ سيد العبيط ، تمثل الحلقة الأولى من حقبة تفكيري . ولما كنت حريصا على الاحتفاظ بنتائج هذه الحلقة ، رأيت أن أجمع ذلك المجهود المتفرق في كتاب واحد ،

يحمل طابعاً واحداً، أسميه « الوتية الاولى ». ولم أشأ
أن أظهره على علاته . فتناولته بالحذف والتهذيب
والاصلاح ، حتى غدا على الصورة التي يراه القارىء
عليها الآن . فالكتاب وإن احتفظ بطابعه القديم
فى الموضوع والفكرة ، فقد اختلف عنه فى الأسلوب
والمعالجة . وقد قدمت له بكلمة عن (حاجتنا إلى
الفن) .

وأرجو أن أكون قد أرحت ضميرى وأرضيت
قرائى بعملى هذا .

حاجتنا إلى الفن

وهي المحاضرة التي ألقاها المؤلف

في رابطة موظفي الحكومة يوم ٢١

يناير سنة ١٩٣٧

أنحن في حاجة إلى الفن ؟ سؤال يتردد كثيراً على
ألسنتنا ولا يجد منا إلا أجوبة متناقضة . فهل نحن حقاً
في حاجة ماسة إلى الفن ؟ هل هو عامل أساسي في حياتنا
لا يمكننا الاستغناء عنه ، أم هو أمر ثانوي نلجأ إليه
للترفيه عن أنفسنا فقط ؟

الفن كما هو معروف ومصطلح عليه بيننا هو كل
ما تضمنه الآداب من شعر وقصص ودرامة وما إليها .

وما تحويه الفنون الجميلة من تصوير ونحت وتمثيل وما شابهها . فإذا أردنا أن نصوغ السؤال على صيغة أوضح قلنا : هل وجود قصيدة لشاعر أو لوحة لمصور أو تمثال لنحات ، لازم لنا في الحياة لزوم مصل من الأمصال معد لمكافحة مرض عُضال . أو قنطرة هندسية لتنظيم الري لقطر زراعي ؟ وهل لوجود الفنانين من شعراء ودراميين ومثاليين نفع للهيئة الاجتماعية يماثل نفع الأطباء والمهندسين ؟

هذا هو موضوع حديثنا .

أول شيء نريد معرفته هو : ما هو الفن ؟ ولوضع تعريف صحيح للفن يجب أن نعرض أمامنا عملاً فنياً ونحلّله لنصل إلى حقيقته ومبلغ نفعه لنا .

فهذه قصيدة من الشعر لشاعر فنان . يصف لنا فيها حقيقة زاهرة بالورود . يستطيع أى إنسان ليس من ذوى الفنون أن يصف لنا هذه الحقيقة وصفاً لا يتعدى ما نجده في قائمة المزايدات والبيوع — وصفاً لا يترك

أى أثر فى نفوسنا . أما الشاعر الفنان فهو يقدم لنا
صورة طريفة مبتكرة عن هذه الحديقة . يصفها لنا
فى موسيقية أخاذة معدداً لنا محاسنها كاشفاً لنا عن جمالها
الحقيقى . ثم يأخذ بيدنا ويدخل معنا عالم الورود
السحرى ويدعنا نعيش فيه برهة من الزمن . فهذه زهرة
طفلة تبدأ حياتها فى طمأنينة وهدوء . وتلك زهرة شابة
قد انتزعتها يد عاتية وألقتها فى مواطىء الأقدام . هذه
تبتسم مرحة تنشر حولها عبيرها الجميل . وتلك تجمع
أوراقها الذابلة حول نفسها تحاول الاحتفاظ بما بقى لها
من شباب ذابل فان . نسير بين هذه الكائنات اللطيفة
نصغى إلى همساتها المطربة وإلى نواحيها المحزن . نشاركها
سرورها وأحزانها وألعابها مستمتعين دائماً بجمالها الفتان .
لقد شعرنا ونحن نقرأ هذه القصيدة بشيء يتحرك
فى قرارة نفوسنا ، بشيء كان نائماً ، فلمسه هذا الشاعر
وأيقظه . هذا الشيء هو الشعور بجمال هذه الورود .
والإحساس نحوها بألفة عجيبة ، برباط روحى سام .

لقد كشف لنا هذا الشاعر الفنان عن الجمال في ناحية
من نواحي هذا الوجود . وجعلنا تتذوق هذا الجمال
في سرور ، وأيقظ في قلوبنا عاطفة الحب السامية نحو
مظهر من مظاهر الطبيعة .

فغاية الفن الكشف عن الجمال وتسجيل مظاهره
وتذوق فنته . ومتى تذوقنا فنته الشيء أحببناه . فالجمال
والحب كلمتان كل منهما متممة للآخرى . فليس هناك
جمال بلا حب ، وليس هناك حب بلا جمال . فالشيء
الجميل هو الذي يُشعرنا بالجمال والحب . ونحن لا نحب
إلا الشيء الجميل . فالفن إذن هو الذي يُشعرنا بالجمال
والحب . فما هو الجمال ؟ وما هو الحب ؟ لا يمكننا أن
نعرف الجمال تعريفاً معيماً له قواعد ثابتة ، وخطوط
محدودة . فالجمال نسبي ، وقد يختلف باختلاف الزمان
والمكان . على أننا يمكننا أن نعرفه تعريفاً عاماً فنقول :
هو ذلك الذي يحوى من التناسق المادى أو الروحى
ما يشعركم بلذة وسرور عند رؤيته . فهذه صورة هَرَمٍ .

قد طحتته السنون استطاع مصورها الفنان أن يُشعرنا
بجمالها . ففي الهرم جمال يماثل جمال الشباب وجمال
الطفولة . والطبيعة تزخر بألوان من الجمال لا حد لها ،
ووظيفة الفنان أن يكشف لنا عنها وينبها إلى وجودها
ويحببها لنا . فهناك جمال في الطهارة ، جمال في الشجاعة ،
جمال في الحيوان ، جمال في الجماد ! جمال في الشيء العظيم .
جمال في الشيء التافه الصغير ما دام فيه تناسق مادي
أو روعي يستطيع أن يبعث فينا اللذة والسرور .

هذا هو الجمال . فما هو الحب ؟ الحب في معناه الأصلي
هو الجاذبية . فهذان الشخصان يشعر كل منهما بحب
للآخر ، أي أن كلا منهما فيه جاذبية تجذب رفيقه إليه .
والإنسان إذا أحب رغب — بلا جدال — في خير
حبيبه . ولا يمكننا أن نتصور محباً يضمم الشر لمن يحبه .
فالحب إذن غايته الخير . ولما كان الفن غايته الحب ،
فالفن إذن يرمى دائماً إلى الخير . ولا يكون الفن فناً إلا
إذا كانت وجهته الخير . والفنان لا يكون فناناً إلا إذا

كان الخير وحى فنه وغايته .
ولكننا نلاحظ أن الفن لم يقصر غايته على إظهار
الناحية الجميلة فى الحياة . فكثيراً ما رسم لنا الفنان صورة
كريمة تمثل القسوة والشر . فكيف يكون فى هذه
اللوحة جمال وهى بعيدة البعد كله عن الحب والجمال
والخير . الحقيقة أن هذه اللوحة ليس فيها جمال ظاهر .
ولكن الفنان الذى صورها رمى من غير وعى إلى إظهار
روعة الجمال من طريق غير مباشر . فهو رسم لنا القسوة
ليشعرنا بالرحمة من حيث لا يدري ، وحدثنا عن الدنس
لنحس بالطهارة . فالشئ لا يعرف إلا بضده . ولو كان
العالم كله خيراً صرفاً لفقد هذا الخير قيمته ، ولما استطعنا
تذوق جماله . ولا يغيب عن نظرنا أن الفنان ناقد قبل كل
شئ ، فهو يعتبر لنا فى صدق وإخلاص عما يحس به
نحو ما فى هذا العالم من حسن وقبيح . ويصوره لنا
تصويراً صادقاً . فالغاية التى يرمى إليها فى الحقيقة هى
الجمال يسلك إليه الطريق الذى يريد .

وهناك تفسير آخر لهذه المسألة . أمامنا رواية يحدثنا فيها مؤلفها الفنان عن شخصيات مجرمة شريرة . ويحللها أمامنا فنرى نفوسها على حقيقتها وكيف تتطور في سبيل الاجرام وعمل الشر . وكلما تابعنا قراءتنا وتعمقنا في دراستنا لهذه الشخصيات شعرنا بأحاساس عطف غريب نحوها . لقد كشف لنا الفنان في شخصية المجرم عن مريض تعس ظلمته الأقدار . مريض اضطرتة أحوال وراثته وبيئته أن يغدو شريراً . ثم تألبت عليه قوانين البشر تطارده وتستحل تعذيبه . فكيف لا نستشعر الرحمة له

لقد استطاع الفنان أن يثير فينا هذه العاطفة السامية، لأن قلبه هو عامر بالحب الانساني العظيم — عامر بالحب لهذه المخلوقات جميلة كانت أو دميمة . والفنان المجرد من هذه العاطفة الانسانية السامية لا يكون فناناً . ونحن لا نتصور وجود مؤلف فنان يضمم البغض لشخصيات رواياته . فما هذه الشخصيات إلا مخلوقات من صنع يده ،

هو خالقها ومبدعها . فكيف يبغي الخالق مخلوقاً
من صنعه .

والآن وقد وصلنا إلى هذه النقطة الدقيقة — نقطة
الخير والشر واتصالهما بالفن — نرى أن نستوفي البحث
فيها قبل الانتقال إلى غيرها . فما هو الخير وما هو الشر ؟
الخير في معناه الأصلي هو الذي يقصد إلى المنفعة .
فالشر منطقياً هو الذي يقصد إلى الضرر ، وقد سمينا
بعض الصفات فضائل أى صفات خيرة لأننا رأيناها
نافعة لتقدم البشرية . وسمينا الأخرى رذائل أى صفات
شريرة لأننا رأيناها مضرّة بالإنسانية . ولنضرب لذلك
مثلاً . فالإنسان في بداءته ، عندما كان همجياً يحيا حياة
عزلة وانفراد كان يستحل القتل ويراه من ضرورات
حياته . يقتل ليسلب أخاه الأدمى طعامه أو امرأته أو
ما شابههما . وظل الأمر كذلك حتى شعر الإنسان
بفائدة التعاون مع غيره ، وكون معه أول هيئة من
الهيئات الاجتماعية ، وحينئذ عدّ القتل في دائرة هذه

الهيئة شراً غير مسموح به . وصار عدم الاعتداء فضيلة
واجبة الاحترام لأن فيها تأميناً لحياته وحياة رفاقه .
ولكن قتل الآخرين ممن هم خارجون عن حلفه بقي
فضيلة من أشرف الفضائل . ومن يستطيع أن يسمى
المحارب الذى يذود عن وطنه سفاكاً قاتلاً . وقس على
ذلك جميع الفضائل بلا استثناء ، فليست هناك فضيلة
واحدة فيها معنى الفضيلة لذاتها بل لفائدتها للجمع .
إذن فكل شيء نافع لنا هو خير . وكل شيء مضر بنا
هو شر .

ونحن إذا نظرنا إلى حالة هذا الكون وما يشتمل
عليه من جماد ونبات وحيوان وإنسان وجدناه دائماً
في تقدم ورقى . فهو يتطور نحو الكمال فى اطراد .
وهذا أمر يكاد يكون ملموساً . فأين دنيا سنة ٣٧ من
دنيا قبل التاريخ . فنظرية التطور تحوى عنصر المنفعة .
والا لما كان هناك تطور . وبما أن الخير هو المنفعة فالعالم
يسير مدفوعاً بعامل الخير أى أن نزعة الخير هى التى

تسوده . فهل هذا معناه أن الشر معدوم . كلا . ولكنه خاضع لعامل الخير الأكبر .

فهذه الحروب بفضاعتها وويلاتها هي في ذاتها شر . ولكنه شر تعتمد عليه الإنسانية في سيرها نحو الكمال . فلولا الحروب لما بقيت الأمم النافعة . ولولاها لما انتشرت المدينيات ولما عمت قوانين الخير . وهذه الطبيعة قد اتخذت لها قانون تنازع البقاء وبقاء الأصلح . وهو قانون فيه قسوة وشر . ولكن لولاه لما استطاع العالم أن يخطو في سبيل رقيه خطوة واحدة .

وقد وقعت وما زالت تقع كوارث طبيعية كالزلازل والبراكين وطفيان الأنهر والبحور . هذه الكوارث يقف أمامها الإنسان حائراً مدهوشاً يسائل نفسه أين نزعة الخير فيها . ليست هذه الكوارث في الواقع خيراً صرفاً ، ولكنها وسائل قاسية لجأت إليها الطبيعة لتصلح من أمر نفسها . هي في الحقيقة إحدى ظواهر التطور الطبيعي للكرة الأرضية لولا وقوعها لما أصبحت الكرة

الأرضية في شكلها ونظامها الحالي بجبالها ووهادها
وأنهارها وبحورها . وما هذه الزلازل والانتفجارات التي
ما زلنا نسمع بحدوثها إلا بقايا ذلك العهد الغابر الجبار —
عهد تكوين الكرة الأرضية . فالتطور لا بد له من
ضحايا . ولا يمكنه أن يتم عمله العظيم إلا إذا سار على
أشلاء قتلاه . ولكنه دائماً يسير ووجهته الخير العام .
فهذا الشر الذي نسميه شراً ما هو في الحقيقة إلا
أداة من أدوات الخير ما دام من وراءه تقدم العالم ورقى
البشرية . وما أحرانا أن نسمي هذا الشر قسوة خالصة .
فنحن نحب أولادنا ولكن حبنا لهم لا يمنعنا من أن نقسو
عليهم في سبيل نفعهم .

ولكن لا يغيب عن بالنا أن في العالم شروراً أخرى
تأتي أهميتها في المقام الثاني من حيث خطرها على تطور
الحياة وارتقائها . وهذه الشرور تقع في المعاملة وتبادل
المنافع الشخصية كالسرقة والاحتيال وما شابههما .
ونحن إذا تصفحنا تاريخ دولة المماليك في مصر راعنا

ما نجده فيه من روعة الفن . فليس من ينكر أن سلاطين
الممالك الذين حكموا مصر قبل الفتح العثماني كانوا من
المحبين للفنون ، يشدون بها في مسكنهم وملبسهم ومختلف
مظاهر حياتهم ، فحلفوا هذا التراث المجيد من آثارهم
في البناء والزخرفة . ولكن هذا لم يمنعهم من أن يكونوا
قساء يحكمون بالدم . فكيف اتفق الفن والشر . فجواباً
على ذلك نقول : لِمَ لا تكون نزعة المملوك الأصلية
نزعة خيرة في ذاتها . وما دفعه في هذا السيل الدامي
سوى بصيرته أى — واعيته الخفية — التى رأت أن
لا مندوحة للقضاء على الفتن واستتباب الأمن وإنشاء
دولة قوية إلا بهذه الوسائل القاسية . إن النزعة المسيطرة
على هذا الوجود هى النزعة الخيرة . أو بعبارة أخرى
إن بذرة الخير بذرة أصلية كامنة فى تلافيف هذا العالم
وهى التى تسير به دائماً إلى هدف معين هو منفعة ورقية .
بذرة الخير هذه موجودة فى كل الكائنات صغيرها
وكبيرها حقيرها وعظيمها . فهذه الذرات التى تكون

منها جميع ما فى هذا العالم من الكائنات مكونة من كهارب يسير بعضها حول بعض وتسير حول نفسها فى حركات هى أرقى ما وصل إليه النظام والتناسق أى أرقى ما وصل إليه الجمال . وهى فى حركاتها متماسكة بقوة الجاذبية أى بقوة الحب . ومن هذا التناسق وهذه الجاذبية تكونت العوالم كافة بشموسها وأفلاكها ونباتها وحيوانها وشعوبها ومدنيتها . الكل يتحرك ويسير فى نظام جميل متجهاً دائماً نحو الخير . فالله خلق العالم على أساس الحب والجمال . والله لا يخلق إلا الجميل ولا يودع مخلوقاته إلا الحب . إذ أنه سبحانه وتعالى المثل الأعلى للحب والجمال .

فتشوا فى هذا العالم عن الدميم — بالمعنى الواسع لهذه الكلمة — فلن تقفوا له على أثر . إن الجمال يغمر كل شىء فى الوجود . تكاد تلبسه فى أتفه الكائنات وأعظمها كما سبق لنا القول . فهذه حشرة صغيرة ليس فيها ما يجذب نظرنا . إذا أمسكناها وتفحصناها فى عناية لرأينا من دقيق صنعها ونظام تركيبها ما يذهل العقول

وعدناها إحدى معجزات الجمال . وهذه القطعة الصغيرة من الحجر إذا فتنها وتفحصنا دقائقها بالميكروسكوب وجدنا أنفسنا أمام عالم كبير يزخر بصنوف شتى من ألوان الجمال . فعابر السيل الذي يمر بهذا الحجر ويركله استخفافاً به واحتقاراً له ما أحراه أن يأخذه ويقبّله إذ هو لا يقل عنه بهاء وجمالاً .

وقبل أن نختم كلمتنا في هذه النقطة نريد أن نذكر علاقة الفن بالغريزة الجنسية . فنقول : إن هذه الغريزة قوامها الجاذبية . وقد فسرنا الحب بأنه جاذبية أى أن يجذب شخص نحو آخر تدفعه تلك القوة الروحية التي نسميها أحياناً بالفتنة . وبما أن غاية الفن هي الحب فالغريزة الجنسية قوامها الفن باعتبار أنها تفاعل أساسه الحب الذى هو إحدى غايات الفن والجمال . فإذا علمنا ما للغريزة الجنسية من الخطر فى حياتنا إذ يتوقف عليها نظام البشرية كله اقتنعنا بأن الفن عامل أساسى للحياة هذا المجتمع .

نستنتج مما تقدم كله أن العالم وما يحويه من كائنات
حية أو غير حية مدين لعامل الحب والجمال بوجوده
أولاً ، وبتقدمه ثانياً .

ولنعد الآن إلى سؤالنا الأول : أنحن في حاجة إلى
الفن ؟ الخطأ الشائع أننا نظن أن الفن شيء اكتسابي
كالعلوم مثلاً . والحقيقة كما يئنا أنه كائن في نفوسنا
وهو جزء منا . فالمفاضلة بينه وبين العلم مفاضلة غير
مقبولة . فلحياة الانسان ناحيتان مادية وروحية . وبما
لا شك فيه أن الناحية المادية تشغل حيزاً هاماً من
تفكيره فلا يمكن بأي حال أن يهمل مطالبا لتعلقها
بتيسير وسائل حياته . ولكن للناحية الروحية مكانها
الذي لا غنى عنه مطلقاً إذ منها يستمد وحيه في إنشاءاته
المادية، وعلى هذه الناحية الروحية يتوقف توفيقه ونجاحه
فيما يقدمه من اختراعات وما ينشئه من مؤسسات . وقد
استطاعت البشرية أن تحيا الحقب الطويلة وتجتاز أشد
الآهوال في عصورها المختلفة وهي في غير حاجة إلى

الأمصال الطبية أو القناطر الهندسية . ولكنها لم تستغن لحظة عن الفن . فنحن إذا جردنا العالم من الفن فماذا يبقى أمامنا . لا شيء غير العدم والفناء .

فأحرى بنا وقد وضح هذا أن نصوغ سؤالنا على النحو الآتي : ما هي الوسائل التي نحتاج إليها لا يقاظ روح الفن الكامنة في نفوسنا وتنميتها وازدهارها .

الناس فريقان : فريق فنان ، وفريق غير فنان ، هذا باعتبار أن بذرة الفن مخلوقة فينا كما أوضحنا . ولكن بذرة الفن في الفريق الأول يقظة نامية وفي الفريق الثاني هامة منكشة . ويمتاز الفنان على سواه من عامة الناس بأن شعوره بالحب والجمال قوى جامع ، فهو مرهف الحس ، دقيق العاطفة ، غير أن هذا ليس كل ما يمتاز به الفنان عن سواه . فهناك شيء أساسي لا يستغنى عنه هذا الفنان وهو القدرة على التعبير عما يحس به في أسلوب شائق وشكل حسن . فهذا محب صادق في عواطفه يقف أمام محبوبته يشكو لها غرامه . فلا يجد عنده إلا كلمة :

« أحبك » يذكرها في تكرار مل يثير سخط محبوبته
في النهاية عليه فتقصيه عنها . على حين نجد محباً صادقاً
في عواطفه كالأول ولكنه يمتاز عنه بمقدرته على التعبير
عن حبه في أسلوب جميل أخاذ . فالأول مثل الفنان
الناقص . والثاني مثل الفنان الكامل .

وكلها قوى شعور الحب والجمال في الفنان وعظمت
قدرته على التعبير كبر فنه وعلا . وإني حين أذكر
الفنان لا أخص هذا الشخص المشتغل بالفنون الجميلة
مثل الموسيقى والشاعر والمثال ، بل أقصد كل إنسان
نستطيع أن نلصق في عمله أيّاً كان هذا العمل ، الشعور
بالجمال والقوة في التعبير عن هذا الجمال . فليس
كل موسيقى فناناً . ولكن من الموسيقيين من هم فنانون
وغير فنانين . أغنى عمال فن . وليس كل أديب فناناً .
فهناك الأديب الصادق في فنه والأديب المهرج في أدبه .
ويمكننا أن نطبق هذه النظرية على كل فئة من فئات الناس
مهما اختلفت أنواعها ودرجاتها . ففي فئة المزارعين نجد

المزارع الفنان والمزارع غير الفنان . فالأول هو الذى يزرع أرضه على طريقة من التناسق والنظام والعناية تشعرك لأول وهلة أنه يحب الجمال وأنه استطاع أن يعبر عنه فى طرافة وابتكار . وهذا المزارع ناجح وسعيد فى حياته ، ما من ذلك بد . وبين فئة الموظفين نجد الموظف الفنان والموظف غير الفنان . فالأول هو الذى يعنى بعمله عنايته بأحب شيء عنده . ويبحث فى تنميته ولا يرضى أن يقدمه إلا إذا كان على الوجه الأمثل فى التفكير والصياغة . فهذا الموظف متقدم دائماً فى عمله ناجح دائماً فى حياته . وهذا الطاهى الذى يقدم لك طعاماً متقناً لذيذاً يشعرك بمسرة ورضا ، أليس هو فناناً ؟ أليس طهيه للطعام على هذا الوجه فناً جميلاً . . . وهناك فى حياتنا الخاصة — حياتنا المنزلية . نجد الزوج الفنان والزوجة الفنانة، وكذلك نجد الأزواج والزوجات غير الفنانين . أما الفنان زوجاً كان أو زوجة فهو الذى لا يقبل أن يعيش إلا فى مكان جميل ولا يحيا إلا

بأسلوب فى الحياة جميل . وليس لقلة النقود — كما يدعى البعض — تأثير كبير فى ذلك . فربما دخلت منزلا لأسرة متوسطة الحال أو فقيرة فرأيتـه نظيفاً منسقاً فى ذوق جميل على بساطة أثاثه . فارتاح له نظرك وابتهج له قلبك . وقد يكون على العكس منه ذلك القصر المنيف المكس بالآثاث الثمين حيث لا نظافة ولا نظام ولا ذوقاً سليماً . حيث تتمثل فيه البشاعة فى أجلى مظاهرها . قلنا إنه كلما قوى شعور الحب والجمال فى الفنان وعظمت قدرته على التعبير كبر فنه وعلا . فالفنانون إذن ليسوا درجة واحدة . ويمكننا تقسيمهم إلى ثلاثة أقسام :

فنان ، و نابغة ، و عبقرى

فنحن نستطيع بوسائل خاصة أن نجعل من الانسان العادى فناناً ، وذلك بأن نوقظ فيه حاسة الجمال والقدرة على التعبير عن هذا الجمال . هذا الفنان هو الذى يعنينا أمره أكثر من الآخرين لأنه يكون السواد الأعظم

من الأمة . أما النابغة فيولد وحاسة الحب والجمال فيه
مستيقظة . وله مواهب خاصة يعبر بها عما يحس به .
ولكنه يطلب منا أن ننمي له مواهبه ونوجهه إلى السبيل
الأمثل . أما العبقرى فهو فى غير حاجة إلى معاونتنا .
ولا يدين لشيء غير عبقريته . والعبقرية مواهب قوية
عظيمة فى قوتها تُخلق مع الفنان خلقاً . والفرق بين
النابغة والعبقرى أن الأول مواهبه محدودة لا يمكنه أن
يضرب فى طريق جديد ويتكسر ، أما الثانى فهو أهيبه
لا حد لها وهى دائماً فى تجدد واضطرام . مشغولة
بالخلق والابتكار

ولنعد الآن إلى الانسان العادى لنرى كيف نستطيع
أن نخلق منه فناً . أهم وسيلة نعتمد عليها فى عملنا هى أن
نلتجئ إلى الفنون الجميلة الراقية ونستعملها أداة لتربية
الذوق السليم . فاذا نشأ الطفل منذ ولادته — بل قبل
ولادته — فى بيئة فنية انطبعت نفسه على حب الجمال
لا يرضى عنه بديلاً . ونقصد بالبيئة الفنية أن نحيط

الطفل بكل ما هو جميل ، فلا تقع عينه إلا على المنظر
الجميل ولا تسمع أذنه إلا اللفظ الجميل والنغمة الجميلة ،
ولا يلتقي منا إلا المعاملة الجميلة التي تنطوي على الحنان
والحب . ثم نعلمه منذ صغره فناً من الفنون الجميلة

نحن لا نزعم أننا نستطيع بهذه الوسيلة في بضع
سنوات أن نخلق شعباً فناناً بأسره . كأنما نخلقه بعصا
ساحر . كلا، فإن تربية الذوق الفني في شعب من الشعوب
وجعله متأصلاً راسخاً في نفسه يحتاج إلى عصور . ولكن
العصور في عمر الانسانية شيء تافه . فإذا تذرنا بالصبر
والمثابرة وصلنا بلا شك إلى غايتنا . فعلينا من اليوم أن
نضع الخطة الانشائية لهذا العمل الخطير، نوجه نظر الآباء
والأمهات وعلماء التربية والمشرفين على أمر التعليم عندنا
بأن يصرفوا اهتمامهم الأكبر إلى هذه الناحية الهامة .
ولنجعل من بيوتنا ودور تعليمنا معاهد للفن الجميل الراقى،
فيتعلم كل طفل ما يصبو إليه من غناء أو رقص أو نحت
أو تصوير أو شعر الخ . وهذا التعليم الفني يجب أن

يكون عاماً شاملاً لجميع تلاميذ المدرسة ، فليس غرضنا تكوين فرق فنية خاصة نحصر اهتمامنا في تعليمها وتدريبها ، لتقوم لنا في نهاية السنة الدراسية ببعض مناظر من مناظر الاستعراض الرسمية أو إلقاء بعض القطع الموسيقية تنشدها في المحافل . بل غرضنا أن يتلقى كل تلميذ من التلاميذ الفن الجميل كما يتلقى علماً أساسياً في برنامج تعليمه يلزمه في جميع سنى دراسته حتى العليا منها . أما مدارس الفنون الخاصة فلها شأن آخر ، فهي لمن يرغب أن يتخذ من الفن الجميل مهنة كبقية المهن يتكسب بها . ونحن في حاجة قصوى إلى مثل هذه المدارس ، فمنها يتخرج الأساتذة الذين نعتمد عليهم في تعليم الفنون في مدارسنا . وهي أيضاً مجال فسيح لمن يريد أن يتفرغ للفن الجميل ويهب له حياته بأكملها .

هذا ونحن لا نريد أن نتعرض لأنظمة التعليم فنفرض قوانين وأنظمة خاصة بتعلم الفنون الجميلة فأن هذا من اختصاص علماء التربية والمهنيين على أمر

التعليم . فلنترك لهم الأمر يعالجونه بفطنتهم . ولكننا
نوجه نظرهم إلى شيء جوهري ، وهو أن الطالب الذي
يتعلم فناً من الفنون يجب أن يعشق هذا الفن . لأنه
سيكون هويته الكبرى في الحياة . فنحن لا نريد طلاء
من الفن بسيطاً إذا ترك التلميذ مدرسته لم يبق منه شيء .
بل نريد قوة متمكنة في نفس الطالب كشجرة راسخة
جذورها كلها نما وكبر نمت وكبرت وآتت أطيب الثمر ،
فالآباء والأمهات والمشرفون على تعليم الأطفال يمكنهم
بدقة ملاحظاتهم لأطفالهم أن يتبينوا فيهم اتجاهاتهم الفنية
في أبسط مظاهرها ، فيعبروها اهتمامهم ويجهدوا في تقويتها
بوسائلهم المغرية فيجدوا من الطفل استجابة سريعة لهم .
وغرضنا من إعداد النشء إعداداً فنياً هو أن نشعرهم
بالحب والجمال . فتصفو أذواقهم وتتهذب طباعهم
وتتسامى أرواحهم دائماً إلى المثل العليا فيحيا حياة
راقية كلها سعادة ورخاء .

وهناك فكرة خاطئة نريد أن نهاجمها في بحثنا هذا .

وهى زعم فئة من الناس أن حياة الفنان يجب أن تكون مثالا للتشرد . فلا نظام ولا جمال ولا نظافة فى ملبسه أو مأكله أو مسكنه . وهذه سبة عظيمة للفن يجب أن تتناصر على إبادتها من الأذهان . لأنها تبث فىنا مذهباً من أشد المذاهب تقويضاً لسعادتنا .

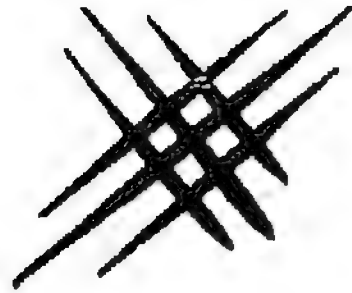
الفنان هو الذى يقدر الجمال ويحبه ويعمل له ، فكيف يرضى بالدمامة مذهباً له فى حياته ؟ . الفن نظام واتساق ، والفنان هو الجميل فى لفظه ، الجميل فى ملبسه ، الجميل فى مسكنه ، الجميل فى نظام حياته .

نريد تكوين أمة فنية بأسرها تحس إحساساً عميقاً بحبها للجمال — إحساساً طبيعياً ليس فيه تكلف ولا ادعاء . نريد مثلاً أن يشعر الشخص منا كيفها كانت درجته أن البصق فى الطريق جريمة ضد الجمال ، أو بالأحرى جريمة ضد الخير العام . ضد نفسه وضد بنى وطنه جميعاً . نريد أن يشعر الفلاح منا بدافع نفسى طبيعى أن المسكن الذى يعيش فيه لا يصلح أن يكون

حظيرة لبهيمة ، وهو المسكن الذى خلا من أى معنى من معانى الجمال . نريد أن يعلم الموسر منا أن حجرة النوم فى منزله يجب أن تضارع حجرة الزوار نظافة وأناقة وترتيباً . وإلا فهو شخص متهم فى ذوقه منافق ، يكذب على نفسه وعلى غيره .

يجب أن يزهى فى كل بيت من بيوتنا فن أو أكثر من الفنون الجميلة ، قرب مزمار شجى فى دار فلاح صغير أو بيان رخيم فى بيت موسر عظيم ، أو لوحة فنية فى قاعة من قاعات التعليم ، أعظم نفعاً وأبعد أثراً فى إصلاح الأمة وتقويم أخلاقها من تجريد جيش جرار من المعلمين . الفن أولاً ، ثم التعليم ثانياً . لنبدأ بتهديب الطباع وترقيق المشاعر ، وتحسين الأذواق وصقل النفوس . ثم نعلم بعد ذلك حروف الهجاء . وهل نكون فى هذه الطريقة مخالفين الطبيعة فى عملها ؟ إن الطبيعة وهبتنا الفن أولاً ، ثم عنيت بعد ذلك بأمر العقل والعلم .

علموا الناس كيف يجيدون الغناء والرقص ونحت
التماثيل وما إلى ذلك من الفنون الأخرى الراقية . فانكم
إن فعلتم ضمنتم أن تجدوا لكم شعباً متفائلاً ناجحاً
في الحياة ، شعباً لا يقبل أى لون من ألوان الدمامة
في أى ناحية من نواحي حياته الاجتماعية أو سياسية
أو شخصية ، شعباً جعل غايته في الحياة المثل
الأعلى للجمال .



عم متولى

عم متولى

عم متولى بائع اللب ، والفول السوداني والحلوى ،
بائع متنقل يعرفه سكان الحليّة وما يجاورها من الجهات ،
يسير بعلمته البيضاء الطويلة وجلبابه الواسع الأكم .
حاملاً على ظهره قفّته العتيقة ، وينادى على بضاعته يعدد
للأطفال أصنافها بلهجة السودانيّين ، وبصوت قد أضعفه
الفقر والهرم . نشأ الرجل في السودان وحارب في صفوف
المهديّين برتبة قائد فرقة ، فهو عظيم في نفسه تعلوه الهيبة
أينما سار . وقد عاش طول عمره وحيداً ، ليس له زوجة
ولا بنون . والظاهر أنه فاقد الميل الجنسيّ .

وهو يسكن حجرة صغيرة مظلمة في عطفة عبد الله
بك ، لا تحوى من الأثاث غير صندوق عتيق ، وحصيرة
عليها لحاف ووسادة باليين . وعلى الرغم من مظاهر فقره
المدقع فإن النظافة تحوطه وتحوط كل ما يملكه .

يُؤوب الرجل إلى بيته مضى من شدة التعب ، وبعد
أن يؤدي فريضة العشاء يشعل مصباحه الزيتي الضعيف
النور ، ويجلس قبالة صندوقه ، ويخرج منه سيفاً قديماً هو
الأثر الباقي من أيام عزه ، فيضعه على ركبتيه ويسبح في
تأملاته الطويلة ، مستعيداً ذكريات حياته الماضية . فإذا
مامرت على خاطره ذكرى المهدي ، رفع بصره إلى فوق ، وأخذ
يدعو الله أن يقرب أيام الرجعة ، أيام العودة المنتظرة
للمهدي — رافع لواء الدين — حيث يحل في الأرض
فيطهرها من فسادها . ثم يخفض بصره ويمسح لحيته المبللة
بالدموع ، ويأخذ السيف فيقبله بشغف عظيم . ثم يقوم
وقد علت هيبته القيادة ، فيخرج السيف من غمده ويلوح
به هنا وهناك كأنه يحارب عدواً في الهواء ، ويصيح
منادياً الجيش أن يتقدم إلى الأمام . . . ثم يصحو من
أحلامه فإذا الميدان حجرتة المقفرة المظلمة ، وإذا الجيش
خيالات وأوهام ، وإذا جلبة المهزومين وصياح المنتصرين
سكون عميق يخيم على رأسه ذى العمامة الطويلة . فيتنهد

بحسرة وانكسار ويعيد السيف إلى مكانه فى الصندوق .
ويقوم إلى عشائه فيتناوله ، ثم يدخل فراشه فى هواده .
ولا يمضى عليه وقت طويل حتى يستغرق فى نوم جميل
يحلم فيه بماضيه الأغر ومستقبله الحافل بعودة المهدي .
وفى الفجر يقوم فيؤدى صلاة الصبح حاضراً ، ثم يقرأ
فى أوراد الجلشاني وكتاب دلائل الخيرات ، حتى إذا
ما أرسلت الشمس شعاعها مخترقاً نافذته الضيقة ، قام
متمهلاً حاملاً قفته على ظهره ، ووجهته « الحلمية » لبدأ
طوافه اليومى .

هبط القاهرة منذ خمسة عشر عاماً . ولكنه لم يغير
نظام حياته طول هذه المدة ، وقد هدمت منازل وأقيمت
غيرها ، ومات أناس وكبر أطفال ، وعم متولى لا يعرف
من القاهرة وضواحيها غير الجهات التى تعود أن يطوف
بها . له محلات استراحة فى الطريق ، هى محطات يتناول
فيها طعامه ويستريح . وقد خص اثنتين من هذه المحطات
بمعظم أوقات فراغه . فالأولى زاوية للصلاة فى الحلمية

يتناول طعام الغداء بالقرب من بابها ، فاذا ما أتمه حمد الله
طويلاً ، ودخل الزاوية يصلي فيها وينام . أما المحطة الثانية
فبالقرب من منزل نور الدين بك في السيوفية ، يقصدها
دائماً بعد صلاة المغرب . وهناك بجوار باب القصر يجتمع
حواله لقيف من بوابي المنازل المجاورة ، وخدم منزل
نور الدين بك ، فيتحدثون بحسرة وألم عن الاسلام في
غابر مجده ، وكيف حلت به الرزايا . هنا يقوم عم متولى
مشرق الجبين ، فيروي للجميع حديث « الرجعة المقبلة » ،
بلهجة متزنة مهيبية وأسلوب أخاذ قوي يأخذ بمجامع القلوب ،
فاذا الجمع كله خاشع مبتهج ، يستمع بشغف لذلك الولي
الجليل وهو يتحدث عن ظهور المهدي ، وتطهير الأرض
من مفسدها ، وعودة الاسلام إلى سالف عظمته . في
ذلك الوقت يخرج نور الدين بك من باب منزله متوكئاً
على عصاه الثمينة ، فيتقدم نحو عم متولى يحيه ويلطفه ،
ويغدق عليه عطيته ، ثم يفارقه وهو يسعل سعال العظمة
والكبرياء .

ويأتى إبراهيم بك ، نبجل نور الدين بك — وهو
شاب مهذار لعوب ، فى السادسة عشرة من عمره — فيقترب
من عم متولى ويصيح به قائلاً :

— أما زلت تروى وقائع الحرب وحوادث المهدي
يا عم متولى ؟

— أرويهـا وأفخر بهـا . لقد كنت قائداً لآلف
عسكرى .

فيقهـه إبراهيم بك ملء فيه . ثم يعتدل فى وقفته
متظاهراً بالخشوع ، ويزرر سترته ، ويصلح طربوشه ،
ويرفع يمينه إلى رأسه مؤدياً التحية العسكرية ، ثم يخرج
قرشاً من جيبه ويدفعه إلى عم متولى قائلاً له :

— أرجوك أن تعطينى قليلاً من اللب والفول
السودانى بقرش صاغ . . . يا جنرال .

— ٢ —

ذهب عم متولى عصر يوم من الأيام الى منزل

نور الدين بك ، وجلس بجوار الباب كالمعتاد . فأخذت
الأطفال تهرع اليه لتشتري من بضاعته ما لذ وطاب .
وأخذ الخدم يقدون اليه من مختلف الجهات ويلتفون حوله
صفوفا مترابطة كالبنيان . حتى إذا انتظمت حلقة الاجتماع
وقف عم متولى وقفته المعهودة ، وشرع يتكلم بأسهاب
عن ماضى الاسلام وحاضره ومستقبله . وبينما الجميع
يستمع بشغف لأقواله الساحرة ، إذ أقبل ابراهيم بك وصاح
بملء فيه قائلاً :

— يا جنرال . . .

فتوقف الخطيب عن الكلام ، وحوّل الناس نظرهم
غاضبين نحو الفتى المهدار يستوضحون الأمر . وتقدم
ابراهيم غير مكترث لمن حوله . وأتم كلامه قائلاً :
— . . والدى يريد أن يراك . فأرجو منك
أن تتبغنى

فأسف الجميع لهذه المباغثة . وخرج عم متولى من
الحلقة حاملاً وقفته على ظهره . ومشى مشيته الهادئة متجهاً

نحو الباب بعد أن شيع أتباعه المخلصين بنظرة عطف واعتذار . وتبع ابراهيم بك إلى حديقة القصر . واخترقا معاً طريقاً طويلاً ينتهى عند مدخل السلامك حيث كان نور الدين بك ينتظرهما جالسا على مقعده الكبير . فأقبل عم متولى مسلماً ، فأجلسه البك بجواره على الأرض بعد أن صرف ابنه . ومضت فترة صمت صغيرة كان يردّداً أثناءها عم متولى بصوت خافت شكره لله وصلاته على النبي . وأخيراً تكلم نور الدين بك ، فأخبر عم متولى بعد مقدمة قصيرة أن السيدة الوقور والدته كثيراً ما سمعت عن أخباره وصفاته ، فأجبت أن تتعرف إليه لتستمع بأحاديثه الدينية الجليلة وتوارىخه الشائقة عن الاسلام . فاختلف قلب عم متولى سروراً لما علمه من أن شهرته قد اخترقت جدران المنازل ووصلت إلى آذان السيدات المخدرات . وقام نور الدين بك متجهاً نحو جناح الحريم وسار خلفه عم متولى . واخترق كلاهما ممشى عريضاً وولجا باباً ضخماً يوصل إلى حديقة السيدات ، ثم صعدا درجات شرقية

مظلمة . ودخلا ردهة عظيمة لم يكد يطأ عم متولى عتبتها
حتى سحرته فخامتها ، فامتلاً قلبه بالروعة والخشوع . إذ
أنه لم ير حتى في قصر المهدي قاعة تماثلها اتساعاً وفخامة .
ولكن الردهة لم تكن من الفخامة بحيث تستدعي كل هذا
الاهتمام . فأن الشيخوخة القاسية كانت قد عبثت بكل
ما فيها . وفيما كان عم متولى مستغرقاً في دهشته إذ طرق
سمعه صوت نسائي ضعيف يرحب به . فالتفت ناحيته
فألقي ربة القصر جالسة غير بعيدة عنه تدخن على متكئ
كبير ، وبجوارها تابعة واقفة . فاذا بها سيدة مقوسة
الظهر ، مجمدة البشرة ، تضع النظارات الذهبية على عينيها ،
وتلبس لبوساً قاتم اللون . فتقدم نحوها ، وقبل يدها
النحيلة ، ودعا لها بطول العمر ودوام الخير . ولما تم
التعارف بينهما تركهما نور الدين بك وخرج لحاله .
وتكلمت السيدة فأظهرت لعم متولى سرورها بمقدمه
ورغبتها في سماع أحاديثه . فخفض الرجل بصره ، وأخذ
يستجمع في فكره رواياته وحوادثه . ثم رفع رأسه

وبدأ يفيض بما عنده بلسان طلق ولهجة مؤثرة خلبت
لب السيدة . فلما أتم حديثه غمرته بغطاء كبير لم يكن
يحمل به ، وأحاطته بضروب من الاجلال أذهلته وأخجلته .
فخرج ولسانه يردد بتلغثم كلمات الشكر والولاء لها
ولأسرتها . وما كاد يصل إلى حديقة الحريم حتى أقبل
عليه رهط من الخادومات أخذن يحمن حوله ، ثم جعلن
يتبركن به ما سحات أيديهن بجلبابه . وطلبن منه أن
يبيع لهن شيئاً من بضاعته . فجلس على الأرض مغتبطاً
وفتح قفته العتيقة . وأخذ يبيع لهن حتى نفذ كل ما عنده .
فقام من فوره إلى الجامع وصلى أربعين ركعة شكراً لله
على عطيته الجزيلة .

— ٣ —

منذ ذلك اليوم يقصد عم متولى دار نور الدين بك
حيث يقابل فيها بالترحيب والاجلال . وتُقدِّم عليه النعم
الوافرة ، فتغير حاله من الفقر إلى السعة ، ومن التعب إلى
الراحة ، ومن الضعف إلى القوة . فشئ مرفوع القامة

ممتلىء الجسم ، يجهر بصوت قوى النبرات . واستأجر غرفة
حسنة الموقع جديدة الأثاث . واستبدل بطعام الجبن
والسكرات والفجل : الأوز والخضر كل يوم ، واللحم
مرتين فى الأسبوع ، واستطاع أن يضخم عمامته ويطيلها ،
وأن يوسع أكمام جلبابه ، وأن يلف حول كتفيه شالا من
الكشمير الرخيص ، وأن يحتذى المركوب الأحمر اللامع ،
ويتمنطق بالحزام الغاباني ذى الهداب الطويل . ثم ترك
رويدا حرفة البيع ، وتخلص من حياة الطواف المتعبة .
ونعم بالنوم الطويل الهنى . وجعل يتصدق على الفقراء
بالعطايا الطيبة ، فعُرف بينهم بنصير البائسين . وأمكنه
أن يذهب إلى المساجد فى أوقات فراغه ليحضر دروس
الوعظ والارشاد ويلقيها بعد ذلك على مسمع من الهانم
والدة نور الدين بك

وذاع صيته فى الحى ، فتهاشم الناس به ، وجعلوا
يتناقلون أخباره ؛ لقد اختفى شبح عم متولى بائع اللب
والفول السودانى ، رجل الفاقة والضعف ، وحل أمامهم

مكانه ذلك الدرويش الكبير ، صاحب الكرامات الذى
اختاره الله ولياً صالحاً ينشر رسالته بين الناس .

وبينما كان رهط من أتباعه جالسين أمام دار
نور الدين بك منتظرين حضوره ، همس أحدهم فى أذن
جاره قائلاً باهتمام :

— ألا يكون هو المهدى المنتظر أرسله الله لخلاص
الاسلام ؟ .

وانتشرت الكلمة بين الجمع فى سرعة البرق ، فاختلجت
الآفئدة ، وخشعت الأبصار ، وأتم الرجل كلامه قائلاً :
— . . . لقد شاهدت سيف النبوة فى صندوقه . ولما
لمسته ييدى استطعت أن أشفى ولدى الذى كان على شفا
الهلاك .

فتطلع الحاضرون باهتمام الى المتكلم . وأخذوا يسألونه
فى الحاح وشغف عن سيف النبوة وكرامة « الدرويش »
متولى . وكثر اللفظ وازدحمت الحلقة بجموع جديدة
جاءت تسأل : ما الخبر ؟ وظهر فى ذلك الوقت عم متولى

من بعيد . فبدأت الجلبة ، وأسرع القوم يشقون له طريقا
بين صفوفهم المتكاثفة . وجاء « الدرويش » يسير بمشية
متتدة لها جلال الأولياء . ويتسم لمستقبله ابتسامة حلوة
عليها طابع الطهارة والتقى . فحنوا قامتهم رهبة وجلالا !
وازدحموا حوله يقبلون يديه وأطراف شاله . وتقدم
الرجل الذى لمس سيف النبوة وقال له :

— يامولاي .. يامنقذ ابني من الهلاك ... لقد
عرفناك بالرغم من تترك ، فلن تستطيع إخفاء شخصك
الكريم عنا بعد اليوم . فأنت « عبد الله » أرسله المولى
لهداية البشر ... أنت خليفة النبي .. أنت المهدي المنتظر
فسرت في جسم عم متولى رجفة كهربائية ، واعتراه
نوع من الذهول . واستند على كتف الرجل خشية
السقوط ، وجعل يردد بصوت خافت متقطع كأنه يحلم
هذه الكلمات :

— أنا المهدي ... أنا خليفة النبي .. أنا الذى أرسلنى
الله لهداية البشر .

وشعر بنشوة هستيرية غريبة . فرمى بنفسه على
الرجل وجعل يقبله ويبكى .

وبعد برهة وجيزة رفع رأسه ونظر الى الجمع ، فألفاهم
سجداً من حوله . فخاطبهم بصوت مرتجف النبرات قائلاً :
— لقد هداكم الله لمعرفة شخصى يا أولادى ..
ولكن الوقت لم يحن بعد لأظهر للناس جميعاً . إن القيامة
قريبة والجهاد مقبل ، فلنتنظر .

ومن ذلك اليوم اعتكف عم متولى فى حجرة لا يبرحها
مطلقاً ، يمضى الوقت إما هادئاً يهيم فى وادى الأحلام
والخيالات ، وإما هائجاً يحارب الأعداء بسيفه القديم ،
ويصرخ من أعماق قلبه فى وجه الشياطين . وكان نور
الدين بك يرسل اليه من يقدم له الطعام ويعتنى بأمره .

وظل عم متولى على هذا الحال بضعة أسابيع . حتى
وافته منيته فى نوبة من نوبات هياجه . فبكاه جميع أهل
الحى ، واحتفلوا بجنائزه احتفالاً مهيباً . وبنى له نور الدين
بك ضريحاً فخماً بقبة عالية .

* * *

وأصبح ضريح عم متولى قبلة الناس جميعاً ، يحجون
إليه استشفاء من أمراض أجسامهم ونفوسهم ..



ضريح الاربعة

ضريح الأربعين

— ١ —

ظهر الشيخ سيد على الشبكة الزراعية يمشى متمهلاً
وهو يلهث رازحات تحت ثقل جسمه الضخم ، يحرك إحدى
يديه إلى الأمام مستعيناً بها على السير كما يستعين النوتى
بمجداف قاربه ، على حين تقبض يده الأخرى على طرف
(زكية) ملقاة على ظهره بها مايجود عليه المحسنون به
من طعام . وكان جلبابه القذر - كسوته الوحيدة التى
لا يملك سواها - ينتفخ بهواء الريف القوى فيزيده ضخامة
على ضخامته ، وربما علت به الريح عن جسمه ، فكشفت
للرائى عن ساق مشققة كساق الفيل .

واتجه نحو القناة التى تستمد مياهها من الساقية ، وهبط
عليها فى المكان المعد لسقى المواشى ، وأخذ يكرع بشره
كما يكرع الحيوان العطشان .

وترك عم خضر الساقية - حيث كان مشغولاً بمراقبة
الثور - واتجه نحو الشيخ سيد ، وأمسك يده وقبلها ، ثم
قال له :

— ادع لي يا شيخ سيد . ادع لي ليفتحها الله في
وجهي ويشفي أم عبد السلام زوجتي المسكينة .
فأجاب الشيخ سيد بصوت غليظ غير واضح :
— يلعن أبوك انت وهي ! .

فابتسم البستاني وأخذ يد الشيخ فقبلها مرة أخرى
وهو يقول له :

— ربنا يسمع منك .
ثم تركه وعاد إلى الساقية ، وكان الرجل قد تمدد
بجوار القناة متوسداً إحدى ذراعيه وتهدأ للنوم .

— ٢ —

كان الشيخ سيد — في طوره الأول — عميد أسرته ،
معروفاً برجاحة عقله وطيبة قلبه ، محترم الجانب ، محبوباً
من الجميع . وكان يعيش في رخاء ، يملك هو وأخواه

عشرة أفدنة ، يشتركون في زرعها ويقسمون محصولها
بينهم بالسوية . وكانوا يسكنون كلهم في دار أبيهم ، وهي
دار ريفية رحبة ، وسعتهم بزوجاتهم وأولادهم ومواشيهم
وعاش الرجل كذلك معزلاً مكرماً حتى أشرف على
الخمسين ، وحدث يوماً أنه بينما كان عائداً بجماره إلى
داره ، إذ عثر الحمار في الطريق فألقاه على الأرض ، وأصاب
رأسه حجر غليظ أسال منه الدم غزيراً ، فحمل على أثر
ذلك إلى منزله ، وبقي طريق الفراش عدة أسابيع بحمى
شديدة غائبة عن صوابه . ولما التأم الجرح وزالت الحمى
أصبح سيد أبو علام غيره بالأمس ، عاد رجلاً فاقد
الذاكرة معتوها ، ولم يعد يصلح لعمل ما من أعمال
الفلاحة ، فتركه أخواه في فناء الدار يقضى وقته مع
الأطفال يشاركونهم لعبهم . ولما طال مرضه وعز شفاؤه
داخل أخويه طمع الحياة ، وفكروا في التخلص منه ، ثم قر
رأيهما على طرده هو وعائلته وحرمانهم جميعاً ثروتهم .
وكان للرجل ذرية كثيرة ، ولكن لم يكن بينها فرد يقوى

على الدفاع عن حقوقهم المسلوبة . وخرجت العائلة مطرودة من دارها ، والشيخ سيد بينهم كأنه دابة من دوابهم أو متاع من أمتعتهم ، واستقر بهم المقام في دار مهدمة صغيرة من دور العزب . عاشوا فيها عيشة البؤس يكسبون شيئاً لا يكاد يقوم بأودهم .

واستمر الشيخ سيد على هدوئه وخموله لا يفارق الدار ، يمضى وقته إما مع الأطفال وإما نائماً بجوار الحائط لا يعرف ليله من نهاره ، وغلظ جسمه وترهل ، وتهدل شعره ، واشتبك بعضه ببعض وتلبك من الأوساخ ، فبشع منظره واحتجبت ملامحه القديمة — ملامح الرجل الذكي العامل ذي القوة والبأس — خلف ذلك القناع الوحشي ذي العينين الشاردتين المربدتين — كما يحتجب الضوء اللامع خلف الزجاج المترب القدر .

وكانت للشيخ سيد أم ضريرة تزوره في الخفاء — حتى لا يعلم أخواه — وتحمل إليه الهدايا من طعام وكساء ، فكان إذا رآها هلل تهليل الأطفال — وهو يجهل من هي —

ويأخذ منها الحلوى والملابس بفرح وسذاجة . أما
هي فكانت تجلسه بجسمه الغليظ على نخذها الواهية ،
وتضمه إلى صدرها بحنو وشغف ، تطعمه بيدها الحلوى ،
وتروى له حكايات الغول والشاطر محمد ، وإذا حل عليه
النوم وسدته حجرها وغنت له أغاني الطفولة الجميلة .

— ٣ —

وماتت زوجة الشيخ سيد تاركة له أطفالا دون سن
الرشد ، فعز على أمه العجوز أن ترى هذه العائلة بلاعائل
ولا مدبر ، فلحقت بها وقاسمتها مضض العيش تعمل
جهدا على تفريج ضيقها .

وكر الزمن ، وكبر الأطفال فصاروا شبانا وفتيات ،
ووجد الشبان الرزق محدوداً في تلك الجهة ، فرحلوا
متفرقين إلى جهات شتى يناضلون في ميدان الحياة الواسع .
أما الفتيات فقبعن في الدار ينتظرن الزواج ، ولكن
الزواج كان يمر عليهن ساخراً لا يمد لهن يدا . وساءت
أحوال العائلة يوماً بعد يوم — على أثر رحيل الأخوة

الذكور الذين كانوا يعولونها — فأخذت الأم الضريرة
تفكر في الأمر ، وقر رأيها أخيراً على الخروج بابنها
المعتوه إلى الأسواق للاستجداء ، فأم ضريرة وابن أبله
مسكين يحركان الشفقة ويستنديان الألف

وخرجت الأم في اليوم التالي تجر ابنها جراً لا متناعه
عن الخروج ، وذهبت به إلى السوق حيث مكثا معاً
يستجديان اليوم كله وعادا إلى الدار ومعهما بضعة نقود
وبعض ما يؤكل .

وتكرر خروجهما كل يوم ، واعتاد الشيخ سيد أن
يجول بمفرده في البلدة تاركاً أمه على رأس الطريق ،
فكان يطوف بالدكاكين والقهوات يكلم نفسه ، ويضحك
ويشتم ، ويحرك يده حركات غريبة ، ثم يعود إلى أمه
وفي زكيته شيء ينتفع به .

— ٤ —

ودخل الشيخ سيد مرة دكان « أبي شوشة » الجزار
وبادره بقوله :

— لقد قلت لك من زمن يا حمار إن الخير كثير .
أهو واحد . . . اثنين . . . ثلاثة . . . الأردب القمح في
الدوار . . . والماء بالراحة في الترع . . . واحد . . .
اثنين . . . ثلاثة . . . ربنا يلعن جدودك ابن كلب
صحيح . . .

— أنا ابن كلب . . . وهل فعلت شيئاً أستحق عليه هذا ؟
— فعلت شيئاً ؟ . . . أبداً . الخير كثير يا ولد ، الخير
كثير .

فابتسم أبو شوشه ووضع في زكية الرجل قطعة من اللحم .
وخرج الشيخ سيد يضحك ويكرر ما قاله للجزار . وجلس
أبو شوشه في الدكان وقد اعتمد بذقنه على يديه ، وأخذ
يفكر فيما قاله الرجل . لقد عد أمامه . واحد اثنين
ثلاثة ، ثم كرر جملته « الخير كثير » فما معنى ذلك ؟
ألا يقصد قضية الأطيان ؟ إن الجلسة بعد ثلاثة أيام .
ومضت الثلاثة الأيام ، ورجع أبو شوشه القضية
— التي ظلت معلقة في المحاكم سنين طويلة — وكان

ابتهاجه بذلك عظيماً ، فأقام ليلة أنس كيلة عرس ، وزع
فيها الصدقات ، وغمر الشيخ سيد بمختلف الهدايا
وكان انتصاراً كبيراً للشيخ سيد تناقله الناس
وأذاعوه ، فذاع صيته ، وقصده طلاب الحاجات من كل
صوب يستوضحونه ما خفى من أمرهم ، فكان يخطب معهم
خطب عشواء ، وساعده الحظ ، وأفلح في هذيانه ، فهابه
الجميع وأجلوه ، وأغرقوا عليه الهدايا والأموال .

— ٥ —

كان رفعت افندى ناظراً للزراعة التي يسكن عزبتها
الشيخ سيد ، وكان رجلاً أحق متكبراً ، له زوجتان :
الأولى امرأة ناهزت الخامسة والأربعين ، تسكن داره
التي في العزبة . أما الثانية ففتاة تبلغ الثامنة عشرة ، وتسكن
داره البعيدة التي في البلدة . وكان يميل إلى الثانية ، ويفضلها
على الأولى ، فأوغر بذلك صدرها

ففي يوم من الأيام كان رفعت افندى جالساً على شاطئ
الترعة أمام العزبة مستظلاً بشجر الجيزة الكبيرة ، يتناول

طعام الغداء بمفرده ، ويقوم بخدمته خادمه الصغير . كان يأكل وهو مقطب الوجه يزجر الخادم لأقل هفوة ، مقبحاً الأكل وصانعة . وجاء الشيخ سيد في ذلك الوقت يتهادى في جلبابه الفضفاض المتفخ بالهواء يحذف يده ويلهث ، وجلس بالقرب من رفعت افندى وأخذ يحرق في طعامه وهو يتكلم بكلامه المبهم المختلط ، فلم يأبه له رفعت افندى وتابع أكله وهو يسب ويشتم بلا حساب ، فزحف الشيخ سيد إليه وأخذ يحرك له يديه ويصرخ في وجهه ، فرمقه الافندى بنظرة شرراء مزجراً ، وعيل صبر الشيخ سيد فمد يده واختطف لقمة من الصينية أخذ يلتهمها وهو يضحك ملء شذقيه ، فاستشاط رفعت افندى غضباً ، وقام ودفع الشيخ سيد محاولاً القاءه على الأرض فلم يتزحزح عن مكانه قيد أنملة ، وحسب أن الناظر يمازحه ، فمد إليه يده ودفعه ببساطة ، فانقلب الرجل على ظهره في الوحل وهو يهدر كالثور الهائج . والتف حولها جمهور غفير من سكان العزبة ، وهم يكتمون الضحك

والسخرية لما شاهدوا الناظر يتخبط في الطين . وسرعان
ما احتل الشيخ سيد مكان رفعت افندى على المائدة ،
وأخذ يأكل بشراهة وغبطة ، وقام الناظر وهو ينظف
نفسه يلعن ويشتم ويهدد قاصداً داره . أما الشيخ سيد
فبعد أن أتى على الأكل كله تمطى و ثأب . وتمدد بجوار
الترعة متوسداً زكيته ، ونام نوماً عميقاً مصحوباً بغطيط
مزعج .

دخل رفعت افندى منزله وهو يغتم ويهدد ، وبعد
قليل قامت ضجة في الدار مصحوبة بتكسير أثاث ، ثم
هدأت ، وخيم على المكان سكون عميق .
وبعد أذان العصر بقليل سمع من منزل الناظر صراخ
وعويل وندب .

واجتمع الناس حول الدار ، وظهر الشيخ حمزه
خطيب الجامع ، صاحب اللحية الحمراء والوجه المجذور ،
على عتبة الباب ، وقال بصوته الجمهورى :
— يا عباد الله، لقد هلك الظالم. إن الله وإنا اليه راجعون

فهمهم الجميع يطلبون لأنفسهم الرحمة ، وأخذ الشيخ حمزة يشرح للناس « كرامة » الشيخ سيد في هلاك الناظر الذى لم يراع مع الشيخ أصول اللطف والكرم ، وجعل يسهب لهم فى هذا القول ، وهو يمجّد لهم الشيخ سيد ويثني على أعماله ويبرهن لهم بمختلف البراهين على أنه ولى كبير من أولياء الله ، قادر على إهلاك الأشرار والبر بالصالحين الأخيار .

وكان لهذه الحادثة وقع كبير فى نفوس الحاضرين ، فأخذوا ينشرونها بين الناس فى حماسة ويقين .

— ٦ —

وكان للشيخ سيد عدة بنات تجاوزن سن الزواج . وحدث أن شاباً من عائلة معروفة فى البلدة شاهد كبراهن وهى تملأ الجرة من التربة ، فأعجبته وتزوجها ، وكان له زوجتان غيرها لم تلدا له ما كان متشوقاً إليه من ذرية ، ولم يمض على زواجه من ابنة الشيخ سيد خمسة أشهر حتى عين عمدة للناحية ، ثم ولدت له زوجته الجديدة بعد أربعة

أشهر أخرى صبيين توأمين . وكانت مبالغته له لم يكن يتوقعها ، فقد زواجه الجديد كرامة عظيمة من الشيخ سيد . وانتشرت هذه الحادثة كسابقتها ، فأقبل وجهاء البلدة على منزل الشيخ يطلبون بناته زوجات لهم . وعاش الرجل وأمه في دارهما وحيدين ، ولكنهما ظلا في بحبوحة من العيش . وآثرت الأم الاحتفاظ بكوخها ، ورفضت أن تنتقل بابنها إلى دار من دور أزواج حفيداتها إذ كانت متبركة به ، وكانت لا تخرج منه إلا لتملاؤم الجرة من التربة ، أو لتجلس على عتبة الباب تستنشق الهواء في هدوء وغبطة . أما الشيخ سيد فكان يخرج صباحا ولا يعود إلى الدار إلا في المساء وهو محمل بأفضال المحسنين . كان يزور مختلف القرى ، ويجوب الأسواق ، يأكل حيث يريد ويستريح حيث يرغب ، محترم الجانب مهاباً من الجميع .
هكذا عاش الشيخ سيد وأمه سبع سنين كاملة . . .

وأخذ جنون الرجل يتحول من جنون هادى
لطيف إلى جنون هائج خطر .

هـان يدخل الأسواق كالزوبعة ، يخطف ويبعثر كل
ما تصل اليه يده ، ويقصد إلى القرى فيمسك بالطيور
فيخنقها ، وكثيرا ما ضرب الناس بلا سبب .

وأمسك مرة بالشيخ حمزه خطيب الجامع الوقور ،
وأخذ ينتف شعر لحيته الشقراء ، ثم ركل الشيخ فى بطنه
ركلة قوية كادت تقضى على حياته .

وبدأ الناس يتذمرون ، ولاحظوا أن شرور الرجل
تتزايد ، وأنهم أصبحوا غير آمنين على أرواحهم . وأخذ
الشيخ حمزه يهمس فى الآذان ، وكانت كلمة « الشيطان »
تردد على الأفواه .

وحدث يوما أن شوهـد الشيخ سيد يجرى صوب
الساقية ، وبين يديه طفل يبلغ العامين ، والشيخ يعضه
بأسنانه كأنه وحش منقض على فريسته ، وصراخ الطفل

يمزق الفضاء . وكان يجرى خلف الشيخ سيد بعض رجال
من الضيعة يصيحون به ليرك لهم الطفل . ولكن الشيخ
سيد كان منهمكا في عمله ، غير آبه بصياح أحد . واقترب
من الساقية ، ولمعت في ذهنه فكرة مروعة أراد أن ينفذها
في الحال . ولكن والد الطفل لحق به وانتزعه من بين يديه .
وكانت أم الطفل بالقرب من زوجها فأخذت ولدها في لفه
وجزع وهي تبكي وتولول ، ثم عادت إلى المنزل لتضمده
جراحه وتعتني بشأنه . أما الزوج فبعد أن سلم الطفل إلى
زوجته عاد إلى الشيخ سيد ثائرا لا يستطيع ضبط نفسه .
والتحمت بين الرجلين معركة هائلة انتهت بفوز حسن
سلام ، فترك خصمه بعد أن كال له الضرب ألوانا ، وقام
الشيخ سيد وهو يبكي ويئن ويتوجع ويجر نفسه في إعياء
عائدا إلى منزله .

أما حسن سلام فبادر بالرجوع إلى داره ليطمئن
على ولده ، فوجده نائما على حجر أمه نوما هادئا ، فانتحي
ركنا من أركان الدار ، وجلس يستعرض في ذهنه ما وقع

له ، وكان يسمع بين فترة وأخرى خوار الجاموسة وهى .
فى زريبتها تطلب العلف ، واعتراه وجوم غريب ، ودب
فى قلبه الخوف ، وخشى أن يكون مصيره كصير ناظر
الزراعة ، وبدأ يلوم نفسه على تسرعه فى معاقبة خصمه .
ويرى أنه كان الأجدر به أن يتركه وشأنه بعد خلاص
ابنه منه . وازدادت مخاوفه وكثرت هواجسه ، واعتقد
أنه لن تمر الليلة دون أن يقع له مكروه ، وشعر باضطراب
تنفسه ، واختلطت فى ذهنه المشاهد المزعجة ، فتمثل له
الشيخ سيد يعزم تعازيمه السحرية ، وشاهد أشباح المردة
من الشياطين ترقص أمام عينيه ، وتندلع من فمها ألسنة
النار . وييدها الهراوات الثقيلة تلوح بهافى وجهه . وأحس
بأنفاس حارة تهب عليه ، وشعر باختناق شديد ، فصرخ
مستنجدا وهو يمزق ملابسه :

— خلصونى منه . . . نجونى من الشياطين . . . يريدون
قتلى . . . إنهم يهجمون على . . .
فقامت إليه زوجته مضطربة ، وسأله ما به ، فأمسك

بها وهو يشير لها إلى شياطينه ويكرر ما قاله قبلا ، فخرجت المرأة من الدار تولول وتقرع يديها على صدرها ، فهرع إليها جماعة من الجيران يتقدمهم عم مبارك أكبر كهول الحي سنا ، وسأل عما حدث ، فأخبرته الزوجة بالامر ، فتنهد الرجل وقال بصوت حزين : « إنا لله وإنا إليه راجعون » ودخل الدار بعكازه الطويل يسير مطأطئ الرأس يتمم بالفاتحة على روح حسن سلام . . . فلما رآه حسن زحف إليه وأمسك يده بشدة وهو يقول له :

— سأموت يا عم مبارك سأموت .

فأجابه عم مبارك وهو يربت على رأسه :

— لا يستطيع انسان أن يرد قضاء الله يا ولدى

فأخذ حسن سلام يبكي في ألم وهو يلتصق بعم مبارك

كأنه يريد أن يرد عنه غائلة الموت .

وبدأ عم مبارك يقرأ على رأس الرجل الآيات

القرآنية التي يتلوها عادة على رؤوس الأموات . فتخاذلت

قوى حسن سلام ، وارتدى على صدر الشيخ فاقد الوعي.

ودخل الدار في تلك اللحظة « أبو حجازي » فسأل
من حوله قاتلا :

— ماذا جرى يا جماعة ؟

فأجابه عم مبارك على الفور :

— حسن سلام ... تعيش انت يا أبو حجازي .

فتقدم أبو حجازي من حسن سلام ، وفحصه مليا ،
ثم قال وكله ثقة بنفسه :

— كلام فارغ ، الرجل فيه الروح . هاتوا يا جماعة القله

فأسرعت الزوجة « بالقلة » وتناولها أبو حجازي

وأخذ يرش الماء على وجه حسن سلام ، ثم جعل يدعك

يديه ورجليه بشدة حتى استفاق وفتح عينيه وهو يقول :

— أنا فين يا جماعة ؟

فأجابه أبو حجازي ضاحكا :

— انت في دارك يا حسن . شد حيلك يا أخي ...

ورنت في أرجاء الدار زغاريد الزوجة ، واستبشر

الناس فرحين بنجاة حسن سلام ، وسرعان ما انقلب

المأتم إلى عرس . وصرخ أبو حجازى بالزوجة قائلاً :
— عاوزين نشرب الشربات « يابنت » جلاوة قيام
حسن بالسلامه ، يا الله بللى السكر واعصرى اللمون .

وخرج عم مبارك مستاء ، وهو يتمم بكلام غير مفهوم .
وتنفس الناس الصعداء بعد هذا الانتصار الحاسم الذى
نالَه حسن سلام على الشيخ سيد ، فلم يعودوا يخشون
شره ، وكانوا يمرون بداره يصيحون متوعدين شائمين ،
فرأت الأم الضريرة أن تحجز ابنها خوفاً عليه من غضب
الناس ، وكانت تخرج خلصة - وتقفل الباب خلفها - لتأتي
له بالطعام والشراب ، وهدأت العاصفة شيئاً ما ، ولكن
الشيخ سيد لم تكن تروق فى عينيه حياة المسجونين ،
فكان يحاول فتح الباب ليخرج ، ثم يرتد خائياً وهو
يصرخ ويبكى ويضرب رأسه فى الحائط حتى يدميه .

وحدث مرة أن استطاع الإفلات من سجنه ، فذهب
توالى سوق البلدة وبدأ ينهب ويبعث ما تصل إليه يده ،
ولكن الناس تجمهرت عليه ، وأقصته عن السوق بعد

ضربه ، وخرج الرجل من السوق فزعاً كالفريسة
الوحشية التي يطاردها الصيادون ، ورغب في العودة إلى
داره فاستقبله جمهور من فلاحى الضيعة وطارده بالطوب
حتى أوصلوه إلى البيت .

منذ ذلك اليوم والشيخ سيد لا يكاد يفلت من داره
حتى يعود إليها مشخناً بالضرب ، فبالغت أمه في الاحتفاظ
به فلم يستطع الهرب من سجنه ، واقتصر على الصراخ
والعويل يملأ بهما جو الغرفة ، وسدت أبواب الرزق في
وجه « الأم » وتنكر لها جميع الناس حتى حفيداتها ،
فكانت تجلس أمام بيتها تطلب الاحسان ، والناس يمرون
بها ولا يقربونها وهم يستعيذون بالله من شر الساحرة
الماكرة .

ولما يئست المرأة من معونة أحد اعتكفت في ركن
من أركان الدار مع ابنها منتظرة بصبر واستسلام قضاء
الله ، واشتد بها الضعف ، فتمدت على الأرض بثيابها
المهلهلة تردد أنفاسها في غير انتظام ولا استقرار ، وقد

تضاءل جسمها وجف ، وجحظت عيناها غير المبصرتين
كأنهما تبحثان في الظلام عن شيء يؤكل . أما الشيخ سيد
فكان يدور في الحجرة ثائراً وهو يقضم الطوب ، فاذا
ما ناله التعب جلس بجوار أمه يبكي ، فتقبله وتلاطفه .

— ٨ —

وحدث أن استطاع الشيخ سيد أن يفلت من سجنه ،
وكان الوقت ظهراً والشمس في أوج حرارتها ، والسكون
يسود العزبة ، والمكان مقفر والهواء خامل وجميع الدور
مقفلة ؛ في ذلك الوقت انطلق الرجل هائجاً كالحيوان
الجائع يجرى هنا وهناك في حيرة وارتابك ، وفُتح باب
إحدى الدور وخرجت منه امرأة تحمل على رأسها قصعة
من الطعام ذاهبة بها إلى زوجها في الغيط ، وكان يسير
بجوارها طفلها الصغير ، فشم الشيخ سيد رائحة الأكل ،
فاستجمع قوته ، وانطلق يعدو نحو المرأة ، وكان يتعثر
فيقع على الأرض ثم يقوم يعدو وراءها ليلحقها ، ورأته
المرأة ففزعت فزعاً كبيراً ، واختطفت طفلها وحملته بين

يديها وأرادت أن تعدو نخاتها قواها ، ولحقها الشيخ سيد
وأمسك بها ، فتعثرت في أذيالها ، ووقعت القصعة وانتثر
الطعام على الأرض ، ثم جعلت تصيح مستنجدة . أما
الشيخ سيد فهجم على الطعام الملوّث بالتراب وأخذ يحشو
به فمه .

وهبت في جو العزبة عاصفة هوجاء من تصويت
النساء زاده نباح الكلاب . وسرعان ما انتشر بين الجميع
أن الشيخ سيد منقض على طفل يأكله ، فجن جنون الناس
وجاء الرجال على عجل بنبايتهم إلى مكان الحادثة ، وتألبو
على الشيخ سيد يضربونه بلا حساب .

وأخيراً صبح فيهم صباح : كفى أيها الاخوان
وارفعوا أيديكم .

فكفوا عن الضرب ، وجعلوا يحففون عرقهم بأكام
جلابيبهم ، وتقدم أحدهم يتحسس الرجل يديه ، ثم تتم
متعجباً ، والتفت إلى اخوانه فأقبلوا يقلبون الرجل معه ،
وانتشرت هممة بين الجميع عقبها صمت ثقيل .

وظهر الشيخ حمزة وصاح في الجمع قائلاً : ما لكم
وجتمتم كالأصنام ؟ هيا للعمل .

وتقدم أمامهم يوسع الطريق ، فشمر الرجال عن
سواعدهم القوية ، وجروا الشيخ سيد كما يحرون ثوراً ميتاً
والأطفال خلفهم يرقصون ويهللون ، وأخيراً وقف الشيخ
حمزه وقال : هنا... وحفروا له حفرة متسعة عميقة، ورموا
بالجثة فيها ، فسمع لها دوى غليظ مخيف ، ثم هالوا التراب
عليها ، وعاد كل إلى عمله كأن لم يقع شيء .

وما كاد طريق العزبة يقفر من المارة ، حتى ظهر على
عتبة منزل الشيخ سيد شبح يزحف ويبحر نفسه في ضعف
وتهالك ، واتجه نحو مكان الجريمة ، وأخذ يتحسس التراب
الممزوج بالدم ، يشمه تارة ويفحصه بين أصابعه تارة
أخرى ؛ وجسمه كله يهتز مرتجفاً . وبغته صاح باختناق
وجعل يلطم وجهه وهو يقول :

— آه يا ابني... قتلوك يا ابني... قتلوك يا حبيبي

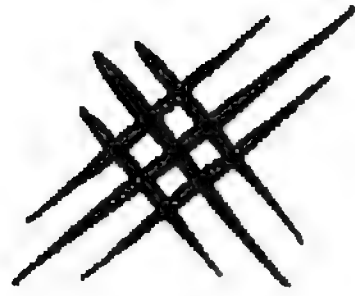
يا ابني...

وارتمى على وجهه يبكي ويتوجع

*

* *

ومرت الأعوام على هذه الحادثة ، وبنى الفلاحون
ضريحاً للشيخ سيد عُرف بضريح الشيخ الأربعين أصبح
كعبة الزوار من كل صوب وحذب ، يقصده من الناس
من اشتد به الكرب أو نزلت به إحدى النوازل ، فيتبرك
به متوسلاً مستغيثاً يطلب معونته ويرجو رضاه ..!



الشيخ جمعة

الشيخ جمعه

أعرف الشيخ جمعه منذ كنت طفلاً صغيراً . ومنذ كانت الأيام هوائاً ومسرة، منذ كانت الحياة بسيطة خالية من قساوة العقل . أعرف الشيخ جمعه منذ ذلك العهد . وهو على حاله لم تتغير ملامحه ولم يتبدل حديثه . أعرفه منذ كان يروي لي قصة سيدنا سليمان وما جرى له مع النسر الهرم الذي عاش الف الف سنة . تلك القصة التي ما زلت أسمعها منه الآن بتفاصيلها ولغتها ، فأذكر عصر الطفولة الجميل ، عصر السذاجة الطاهرة . لقد كبرت ونما عقلي ، فأصبحت أجالس الشيخ جمعه لأهوى بوقتي معه فأستمع لقصصه الخرافية بلذة مصحوبة بتهكم . وكنت فيما مضى أجلس قبالة وعيناي مملقتان في وجهه — ذلك الوجه المخطط بالتجاعيد — أرقب شفثيه الهادئتين ترسلان الألفاظ فكأنها السحر . لا أقابله إلا مرة في العام ،

وذلك حينما أذهب للضيعة لأقضى بها وقت الراحة . ولقد
مرت السنون الطوال ، وتغير كل شيء على الأرض إلا
الشيخ جمعه ؛ فهو هو الرجل ذو العمامة الحمراء والجلباب
ذى الأكمام الواسعة . هو ذو الابتسامة العذبة والرأس
المنحنى قليلا إلى الأمام . هو ذو العينين الברاقيتين والآنف
الغليظ واللحية الرمادية الكثة . هو ذو الجبهة المزدحمة
بالتجاعيد والبشرة السمراء الضاربة إلى الحمرة — حمرة
السعادة التي تغذى روحه وجسمه . أجل هو هو الرجل
ذو المشية المتمهلة ، والصوت الرفيع العذب ، والخيال
العريض والأمل المطلق الذي لا حد له . هو الذي يقوم
من النوم مبكراً ميمماً صوب الجامع ليؤدي فريضة الصبح
قبل شروق الشمس . وهو الذي يقضى معظم نهاره في
المصلى الواقع على شاطئ الترعة يتوضأ ويصلى وينسبح
ويقرأ الأوراد .

في ذلك المصلى أذهب إليه فأجلس بجواره أستمتع له
وهو يقص على حكايات السيد البدوي الذي حارب

الجيش قبل أن يولد ، وقصة جذوة النار التي طارت
من جهنم وحلت بأرضنا منذ آلاف السنين ، فارسل
الله عليها ماء البحور كلها لتطفئها وتمنع أذاها وهي مازالت
متأججة كما كانت تنذر الناس بشر عظيم .

لا أنسى إلى اليوم تلك النظرة المملوءة بالاسترحام
وذلك الوجه المستعطف الباكي وهو يقول :

— إذا كانت جذوة واحدة لا تستطيع بحور العالم
قاطبة أن تطفئها ، فكيف تكون جهنم التي أعدت
للكافرين ؟

وكنت أحمل له في بعض الأوقات كتاب « ألف
ليلة وليلة » وأقرأ له حكاية « السندباد » وحكاية « مدينة
النحاس » . فكان يصغي في شغف إلى حديثي والابتسام
العذبة تسبح على وجهه . وإذا ما قرأت له قصة من قصص
« هارون الرشيد » قال :

— هذا ملك من ملوك الإسلام حارب الجن
والأنس معا . .

وإذا ما رويت له من شعر أبي نواس أو عمر بن
أبي ربيعة في الغزل قال :

— هذا شعر سيدى عبد الرحيم البرعى يمدح
الحضرة الآلهية .

يسمع الشعر وهو مأخوذ بطلاوته ورنه رويه .
مسحور بما فيه من المعانى التى كان يحملها دائماً على محمل
المدح فى الله عز وجل . فيهتز رأسه ويلتوى بخصره حينما
ترن الكلمة الخلافة الساحرة فى أذنه .

فاذا سافر الشيخ جمعه إلى مصر ليزور الأولياء كان
مبيتة فى منزلنا . وكثيرا ما كنت أطلبه بالاجابة عن
أسئلة أعلم أنه يجهلها جهلا تاما، فكان يجيب عنها فى سذاجة
وسهولة عظيمتين . قلت له مرة وكان الوقت مساء وقد
أشرت له إلى مصباح كهربائى أمامنا :

— أنظر يا عم جمعه إلى هذا المصباح الجميل وكيف
يشعل وينطفئ بهذه السرعة الغريبة . ألا ترى ذلك دليلا
ساطعا على تقدم الأفرنج ومهارتهم ؟

فكث برهة ينظر إلى المصباح . ووجهه الآخر المجدد
لا يتحرك . ثم قال بعد تفكير لم يدم طويلا :
— اعلم يا بنى أن هذه أسرار يعلمها الشياطين ، ولا
يعلمها المؤمنون . والشياطين توحى بأسرارها للكفرة .
إن لهم الدنيا ولنا الآخرة .

ثم رفع رأسه ويديه إلى فوق ، وهو يقول :
— الحمد لله الذى جعلنا من المؤمنين .

لم يكن يفارق المنزل أثناء وجوده فى القاهرة إلا
ليزور المساجد وقبور الأولياء أو ليشتري الصابون والبن
والسكر لزوجته . وكان إذا دخل الجامع يهرع إليه الناس
من كل صوب وحذب يقبلون يديه ، ويلتفون حوله يستفتونه
فى بعض المسائل الدينية فيجيبهم عنها فى طلاقة وسهولة .
لقد كان الشيخ جمعه فيما مضى خفيرا لجرن «الأوسية» .
يحنى المحاصيل من اللصوص ويقرع الصفيحة بعكازه
الأثرى إرهابا للعصافير . وكانت له مظلة بناها من فروع
الأشجار ، وأقامها بجوار شجرة النبق الصغيرة . يتفيا

ظلالها فتقيه مطر الشتاء وشمس الصيف . هناك ينام
نوما هادئاً طويلاً معتمداً على الله في حراسة الجرن . فإذا
ما صبحا وكان الوقت وقت الأصيل قصد إلى التربة وجلس
على حافتها يراقب نساء بلدته وهن يملأن جرارهن فجاذبهن
أطراف الحديث .

هذا الرجل المتعبد الخاشع الذي يملأ الدين فراغ قلبه
ليس متقشفاً ولا زاهداً للدنيا ، بل له أوقات صفو كثيرة
يمتّع فيها نفسه . فيطرب للغناء والطبل ، ويلتذ بسماع
المزمار ذي الصوت الشجي . وعندما يحمى وطيس الغناء
والمزمار والطبل يقوم الشيخ جمعه ونشوة الطرب تملأ
رأسه ، فيرقص بسكينة وصمت ، ويده رافعة عكازه في
الهواء تلوح به يميناً وشمالاً .

وللشيخ جمعه حديث في الغزل والتشبيب بالنساء
لا يملّه السامع . فكثيراً ما أخبرني بحوادث غرامه حينما كان
قئى يجرى في عروقه دم الشباب ، وينبض قلبه بمعنى الحب .
يحدثني عن أيام شبابه ، ووجهه مشرق بتلك الذكريات

الجميلة ، وعيناه البراقتان تلمع فيهما أحلام الفتوة والصبا،
ويشرح لي لغة الغرام الصامت بتلك السذاجة الريفية
الصافية . وإذا ما أتم حديثه تنهد من أعماق قلبه والابتسامة
العذبة تتضاءل ويبدأ على شفثيه ثم يقول في أسف وحسرة:
- « يا الله حسن الحتام »

* * *

هذا هو الشيخ جمعه الرجل العامي الفيلسوف ، الذي
يعيش باسما على تلك الأرض المكفهرة القاسية ، كما
يعيش الزهرة في الصحراء الجرداء الحامية ذات الأهوية
السامة .

هذا هو الشيخ جمعه الرجل السعيد بأيمانه ، القانع
بعيشته ، المنعم بخيالاته ، الرجل البعيد عن العلم المعقد
والفلسفة السقيمة ، الرجل الذي تسعى إليه السعادة
الحقيقية فيستمتع بها استمتاعاً صحيحاً .

مهزلة الموت

مهزلة الموت

دخل الطبيب حجرة الخادم المريض — مصطفى حسن — مصحوباً بأغا الحريم . وكانت حجرة قدرة ذات كوة ضيقة تدخل منها خيوط ضئيلة من أشعة الشمس المتأججة الساطعة ، أثاثها قديم مهشم يمتاز بذلك السرير الجريد ذى الفرش القذر الممزق وتلك الخزانة التى لا يدل ظاهرها الوضيع على ما تحويه من تحف غالية .

لقد كان مصطفى حسن شديد التقدير على نفسه ، فاستطاع أن يدخر فى سنى حياته مائتى جنيه ذهباً كان يحرص عليها حرصه على روحه .

وجس الطبيب نبض المريض ثم كشف عن صدره وفحص رتتيه . وقال للأغا بصوت منخفض إنه لن يعيش أكثر من ساعتين .

ولم يكد يخرج الطبيب حتى فتح المريض عينيه وأخذ

يسعل باستمرار سعالاً أنهك قواه .

كان مصطفى حسن مملوكاً للرحوم الباشا رب القصر ،
اشتراه حينما كان صبيّاً يبلغ من العمر الثامنة ، وكانت
تلوح عليه إذ ذاك مخايل الفطنة والنشاط ، فسرى به الباشا
وأمر بتربيته وتعليمه ، ثم أشار بتدريبه على أعمال الدائرة
والزراعات . ولكن مصطفى حسن برهن لسيدته فيما بعد
على أنه لم يكن أهلاً لهذه العناية الممتازة إذ لم يثمر تعليمه
إلا ثمرّاً فاسداً . فاضطر الباشا أن يجرده من وظائفه
السامية التي حباه بها ، وأهمله إهمالاً مزريراً . ثم كلفه
أخيراً بحراسة الباب حينما توفي عم مرجان بواب القصر
القديم .

وظل الرجل قائماً بحراسة الباب حتى توفي سيده ،
فأخالته مولاته ربة القصر على المعاش راقية به . وأصيب
منذ عام بنات الرثّة ، وكانت شديدة الوطأة عليه ،
فانقطع كل أمل في شفائه ، وهو الآن يلفظ نفسه
الأخير .

وبعد أن شيع الأغا الطبيب حتى باب القصر ، قصد
مولاته في حجرتها الخاصة في الطابق الأعلى ، فوجدها
جالسة على السجادة تقرأ سورة « يس » وبجوارها شيخخة
القرآن تستمع لها . فلما أحست بدخوله رفعت نظارتها
الذهبية والتفتت إليه مستفسرة وقالت :

— ماذا قال الطبيب يا بشير أغا ؟

وكان بشير أغا بديناً تخاله زكية مكتنزة بالشحم .
فلم يجب على كلام سيده بشيء ما ، إذ كان يتنفس بشدة
على أثر صعوده سلالم المنزل الكثيرة فاضطربت الهانم
وكررت السؤال ، فمسح الأغا عينيه بيده متكلفاً الحزن
الشديد ، فصرخت السيدة قائلة :

— هل مات مصطفى حسن . ؟

وكان الأغا في ذلك الوقت قد نال قسطه من الراحة ،
وعاد تنفسه إلى سابق انتظامه . فأسرع بالاجابة قائلاً :

— لم يميت بعد يا سيدتي ، ولكنه مع الأسف يسلم

الروح .

فانحدرت دمعتان على خدتي السيدة . ثم تمت بصوت فيه رنة الاستسلام .

— إنا لله وإنا إليه راجعون

وتكلمت شيخة القرآن بصوتها الأجلج قائلة :

— الفاتحة على روحك يا مصطفى حس

وأخذ الثلاثة يقرأون الفاتحة . وأخرج بشير أغا

ساعته فوجدوها العاشرة ، ف ناجى نفسه قائلاً :

— سيموت مصطفى حسن الساعة ١٢ . . . أى على

مدفع الظهر بالضبط .

وخرج قاصداً غرفة المريض ليخفر بابها ، إذ أقام

نفسه وارثاً شرعياً لمصطفى حسن يأخذ من تركته

ما تشتهي نفسه .

وسرعان ما انتشر خبر المريض الذى يسلم الروح ،

فتقاطر الخدم من كل صوب وحذب على غرفته ، فوجدوا

بشير أغا قد أحكم غلق بابها ، وجلس أمامه ويده عصاً

غليظة يضرب بها الهواء ارهاباً لمن يريد اقتحام الغرفة .

فأخذوا يسألونه بلهفة قائلين :

— هل مات مصطفى حسن ؟ هل مات ؟ ..

فكان يجيبهم في كبر وترفع :

— إنه يسلم الروح

ولما لم يجد الجماعة سيلاً إلى الدخول تفرقوا، إلا قليلاً

منهم أحاطوا بالأغا بحادثونه .

وقصد الأطفال نافذة الحجرة وتكاثروا عليها ليروا

كيف يموت مصطفى حسن . فقال أحدهم وقد احتل

مكاناً طيباً أمام النافذة وبدأ يدافع عنه بشدة :

— يا لطيف . إن بطنه قد انتفخت حتى كادت

تلاصق السقف

وقال آخر بعد أن سب المتكلم لمنعه إياه من التفرج

بسهولة : *

— عيناه قد حان شررا . وفمه يتفت دما . النار .

الدم . النار . الدم ...

وترك مكانه هارباً وهو يكرر كلمته بولولة وفزع .

فتبعه الآخرون خائفين ، وهرولوا إلى الشارع حيث
أخذ كل منهم يروي للبارين قصة الموت الرهيبة كما أوحى لها
لهم مخيلتهم .

وأخرج الأغا ساعته فوجدها الحادية عشرة فتمتم
لنفسه قائلاً :

— بقيت ساعة تماماً على دنومنيّتك يا مصطفى حسن .
سوف ترحل أنت إلى العالم الآخر وسوف أستحوذ أنا
على ما يروق لي من تركتك الجسيمة .

والتفت إلى عم مدبولي « المقدم » وهو شيخ مسنّ
عليه مظاهر الصلاح ، وأسرّ في أذنه قائلاً :

— سيموت مصطفى حسن بعد ساعة ، فماذا نفعل
بتركته ؟ ألا يحسن أن نقسمها على الخدم .

فاهتز الشيخ سروراً . ولكنه تظاهر بالقناعة قائلاً :

— افعل ما تراه حسناً ياسيدي

— سأعطيك حذاء وثلاثة جلايب وبطانية
— أطال عمرك . . ولكن ألا تنتقي شيئاً لنفسك ؟

— مطلقاً . . إن « كيس النقود » سارفعه إلى مولاتي
وسمعهما فراش القصر ، فدنا منهما ، وقال للأغا
مستعطفاً :

— أرجو ألا تنساني يا مولاي
— لن أنساك يا عثمان . سأعطيك مجموعة من المراكيب
الجديدة . إن المرحوم كان يكثر المراكيب الحمراء الغالية
فسر عثمان بهذه الهمة وقال :
— أعطاك الله الخير والبركة ياسيدي . ولكن ألا
يكون الشال الغاباني من نصيبي ؟

— بالطبع
فقبل عثمان يد الأغا شاكراً . واقترب عبد القوي
« السقا » وقد سمع بعض حديثهم فتكلم بصوت عال
محتجاً على ما يريدون اقتسامه سراً :
— لقد خدمتُ المرحوم خدمات كثيرة . ألا يصيبني
من تركته شيء ؟
فصرخ الأغا مجيئاً :

— وهل تظن أنى نسيتك يا وقح ؟
فسر عبد القوى وتكلم بلطف وتملق :
— لا حرهنى الله منك يا سيدى . إنى لا أطلب الا
بأشياء بسيطة

أولاً — الحذاء الأسود المتين الذى كان للرحوم الباشا
ثانياً — الطربوش الجديد الذى اشتراه مصطفى حسن
فى العام الماضى ، ولم يستعمله بعد

ثالثاً — الشاهية التى اشتراها للعيد ، ولكنه لم يقربها
حتى اليوم
رابعاً —

ولكن عم مدبولى «المقدم» صرخ مقاطعاً السقا بقوله :
— أنت لا تريد أن تترك لغيرك شيئاً . نريد أن نوزع
التركة بالعدل . والخدم هنا كثيرون . ما الذى يبق للشيخ
عبد الحى الفقى «الراتب» والأوسطى على الطباخ وصبيه ،
وسيد متولى «الزبال» و...

وسمع الجميع صوتاً ضعيفاً يشق طريقه بجهد من باب

الحجرة كأنه صوت خارج من القبر ، فانصتوا فاذا المريض ينادى ، فاستوى الأغا واقفاً وقد أخذ العرق البارد يتصبب من جبينه وقال :

— لقد دنت الساعة . إن مصطفى حسن يا جماعة

يسلم الروح . هلم ندخل

وفتح الباب ودخل ، فتدفق الخدم خلفه ، وتقدم الجميع نحو المريض وأحاطوا بالسرير . فرفع مصطفى حسن رأسه قليلاً وأمسك بيد بشير أغا وسأله بالحاح وبصوت مرتجف قائلاً :

— ماذا قال الطبيب . . . لقد سمعتكم تتكلمون عن تركتى . . هل قضى الأمر . .

فطأطأ بشير أغا رأسه ولم يجب ، فامتقع وجه المريض وسرت في جسمه رجفة قوية ، واعترفته نوبة سعال شديدة غاب على أثرها عن الوجود . وظن الجميع أنه قضى فصمتوا رهبة واجلالاً . ثم شخصوا بأبصارهم نحو الأغا ، ففهم ما يرومون ، فدنا من عم مدبولي «المقدم»

وأسر فى أذنه بضع كلمات ، فامثل الرجل للأمر ،
واقترّب من رأس المريض ومد يده تحت الوسادة.
يبحث عن مفتاح الخزانة . وفتح المريض عينيه فى تلك
اللحظة ، فسحب عم مدبولى يده وتظاهر بترتيب الفراش.
ولكنه مال على المريض وقال له برقة وهدوء :

— أعطنى المفتاح يا مصطفى لأخرج لك جلبابا من
الصوف وغطاء سميكاً . . . أراك تنتفض من البرد
فتمتم المريض مجيباً :

— لا لزوم لذلك يا عم مدبولى . أريد الاحتفاظ
بجلابى وأعطيتى للمستقبل

ثم أمسك بيد الرجل ، وجعل يهزها هزات عصبية،
وتقلص وجهه فغدا كوجه الأطفال وهم يكون . وأخذ
يتكلم كلاما متقطعا بصوت تخنقه العبرات قائلاً :

— لن أموت يا عم مدبولى . . لن أموت . . أليس
كذلك ؟ . أشعر بتحسّن صحتى .

ثم فتح عينيه على آخرهما وحاول الجلوس على

سريره وهو يقول:

— أريد أن أترك السرير لأتمشى في الحجرة . . .

أشعر بقوة جديدة حلت في جسمي . . . أتركني يا عم مدبولي . . . لست من الضعف بالدرجة التي تتوهمها .

ولكنه شعر بانقطاع نفسه ، وهوى رأسه على الوسادة ، وأخذ صدره يعلو ويهبط بحركات تشنجية مضطربة ، وجحظت عيناه ، وجعل فمه ينفتح وينطبق مستجديا الهواء بتوسل وإلحاح ، فيهتز جسمه كله على الأثر هزات شديدة . وأخيرا تدفق الدم من فمه وهدأت حركاته هدوءا تاما . فاقترب عم مدبولي وغطى جسم الميت بأكله ، ثم مد يده بكل بساطة تحت الوسادة وأخذ المفتاح وسلمه إلى بشير أغا . فأصدر الأغا أمره في الحال بنقل الخزانة إلى الخارج فتقدم الرجال وجعلوا يجاهدون في سبيل نقلها ، واستطاعوا بعد مشقة أن يحملوها إلى الباب ، ولكنها أفلتت من أيديهم وسقطت متحطمة ، ورأى بعضهم أن يغتتم الفرصة فينال منها شيئا

خلسة . وراه الآخرون فـدوا أيديهم جهاراً
نحوها يرفعون ألواحها المتكسرة ويخطفون منها
ما يستطيعون خطفه . وحيت معركة النهب فاختلط الجمع
بعضهم ببعض يقتتلون ، وارتفعت الجلبة في سماء الغرفة ،
جلبة الشتائم والضرب ، وخاف الأغا على كيس
النقود — حصته التي اختص بها نفسه دون سواه —
فأخذ يصرخ بصوته الارستقراطي صرخات متوالية
ليكفوا عن السلب ، فلم يعره أحد انتباهاً إذ كانت
غريزة الاستئثار قد ذكت في قلوبهم فأصمت آذانهم
وأعمت بصائرهم ، فانقلبوا ذئاباً جائعة تقتل على فريستها
في جنح الليل . فلم ير الأغا بدءاً من العمل — وقد تيقن
أن الوقت وقت أعمال لا وقت أقوال — فتقدم وشمّر
عن ساعديه ، ودخل المعركة مزججراً هائجاً ، وأخذ يدفع
هذا ويركل ذاك وينطح بعضاً ويعض آخرين ! . وأخيراً
وصل إلى الخزانة المحطمة فرمى بجسمه الهائل عليها ،
فجربها عن الأناظر ومدّ يده إلى مكان الكيس —

الذى كان يعرف موضعه — وأخرجه بلا مشقة . ومن
ثم قام وتركهم يقتسمون التركة كل على مبلغ قوته .
وقصد الأغا مولاته فأخبرها فى رفق بنعى المملوك ،
وطلب منها أن تتكرم بأعطائه نفقات الجنائز والدفن ،
فناولته مبلغاً وافراً أخذه وانصرف توجهاً إلى غرفته .
وبعد أن أحكم غلقها فتح كيس النقود — غنيمة من
كنز مصطفى حسن — وأفرغ ما فيه فى حجره ثم أخذ
يعد المائتى جنيه بشراة وانفعال . ولما أتم العدة دعك
يديه طرباً ، وأدخل النقود فى خزائنه باحتراس وهو
يتمتم قائلاً :

— أحسن من عينك يا مصطفى حسن . أحسن من
عينك . كنت تقترب على نفسك ليتمتع غيرك بعدك . . .
وكان الخدم قد انتهوا من اتهااب الغنيمة . وحملوا
أسلابهم وتركوا الميت وحيداً لا يؤنسه غير خزائنه
المحطمة الخاوية

وفي الساعة الرابعة بعد ظهر ذلك اليوم ، خرجت جنازة المملوك الكهل مصطفى حسن ، يتقدمها جماعة من المشايخ العميان يرتلون بصوت أجش : لا إله إلا الله . . . ويسير خلف النعش جماعة الخدم وعلى رأسهم بشير اغا . وكان الجميع — ما عدا الاغنا — يلبسون الملابس والأحذية الجديدة التي سلبوها من تركة المتوفى . الكل قانع بما أخذ ، إلا عبد القوى السقا فقد كان « يبرطم » لرفيقه قائلاً :

— أأخدم المرحوم هذه الخدمات الكثيرة ولا ينالني شيء يذكر ؟ . . انظر هذا هو عثمان البربري لابساً الشاهية الجديدة والحزام الغاباني ، انظر إلى طربوشه الجديد ومركوبه الأحمر . وما هو ذا عم مدبولي ، ألا ترى كيف نال الجلباب الصوفي الجميل ، هذا غير البطانية الجديدة ودسته الجوارب . . . أما أنا فماذا أخذت ؟

فنظر إليه العريف ييومي قائلاً :

— وماذا أخذت يا عم عبد القوى ؟

فصرخ عبد القوى السقا :
— لم أنل إلا الخزاء هذا الضخم . . كان المرحوم
اشتراه بعشرة قروش من سوق العصر
فالتفت إليه الأغا وزجر بشدة ، ثم بصق على
الأرض وقال :
— اخرص ديوز . . . كرتة . . .



بنت الجيران

بنت الجـيران

عباس فريد الطالب بالمدرسة الخديوية ، أو عباس بك فريد نجل المرحوم عبد السلام باشا فريد قتي في السادسة عشرة ، رزين وديع الأخلاق ، لم يخض بعد غمار الحياة ، حياة الحب والنساء . اعائلته قصر جميل في رمل الاسكندرية اعتاد أن يقضى فيه أجازة الصيف من كل عام .

انتهت السنة الدراسية ، وانتقل عباس الى زينينيا ، وبدأ حياة الاستحمام في البحر والنزهة على الشاطئ . وحضور حفلات السينما اليومية في الكازينو . رحب عباس ككل عام بالرمل وما يحويه من مسرات . رحب بحجرته المطلّة على البحر ، وبكشك الحمام القائم على الرمال ، حيث يمضى بجواره الوقت من الصباح حتى الظهر مع رفقة من اخوانه ، وهم بملابس الحمام يتناولون الحلوى

والفطائر من الباعة الجوالين .

أطل عباس من نافذة غرفته وابتسم ، ثم تناول رواية قصصية يريد أن يتسلى بمطالعتها ، ولكنه ما كاد يبدأها حتى رماها جانباً ، وأخذ يفكر فيما سوف يعمل في الغد مع رفاقه ، لقد أخذوا اليوم القارب وطاقوا فيه ببعض نواحي الشاطئ ، وتعرفوا بأصدقاء جدد تسابقوا معهم ، فكان هو الفائز .

وكان ينظر تارة إلى البحر المزبد ، وأخرى إلى حديقة منزل الجيران ، وكانت تنزه فيها فتاة أفرنجية رشيقة هي ابنة صاحب الدار ، اعتاد عباس أن يراها كل يوم كما اعتاد أن يرى أثاث منزله أو أشجار حديقته ، فلم يأبه لها وانصرف بنفسه كلما يفكر في مشروعاته الصيانية .

وفُتح الباب فجأة ، ودخلت والدته عباس فريد مكفهرة الوجه غصبي ، فقام الفتى مذعوراً ، وتقدمت أمه منه وأمسكت أذنه بيد من حديد ، وقالت :

— ألم أقل لك عدة مرات لا تنظر إلى النساء

يا وقح يا قليل الأدب ؟ لماذا تطيل النظر إلى هذه الفتاة ؟
من يدري لعلك مغرم بها ؟

فدهش الفتى واغرو رقت عيناه بالدموع ، وصاح
قائلاً :

— أنا ؟ أنا مغرم بهذه الفتاة ، أقسم بالله العظيم أنى
لا أشعر بوجودها

— اخرس يا قليل الحياء ..

وعز على الفتى أن يُتهم ظلماً ، وألا تصدق والدته
كلامه ، فانفجر يبكي بشدة وهو يحتج .

وهدأت ثورة الأم شيئاً ما فأقبلت على ابنها تحادثه
بلمحة لطيفة قائلة .

— إني أريد نفعك يا عباس .. أريد شاباً كامل
الأخلاق ، قل الحق . لقد كنت تبسم لفتاة الجيران ،
أليس كذلك ؟

فمسح الفتى عينيه ، وقال بتأكيد .

— مطلقا والله العظيم ، بل كنت أبتسم لأنني تذكرت
شيئا سرني ..

— أنصحك يا بني أن تباعد عن هذه الفتاة وأن
تنبه لدروسك

— ليس لي شأن بها ولا بغيرها .

— هذا ما أريده منك ..

وقبالت الأم ابنها وخرجت . ومكث عباس بمفرده
في الحجرة وهو يعجب لهذه الظنون الغريبة التي
تخطر على بال والدته ، وينعى عليها تلك المعاملة
القاسية التي تعامله بها ، وقد أشرف الآن على سن
الرجولة . وتذكر تسامح زينب هانم مع ابنها مراد ،
صديقه .

وفي صباح اليوم التالي استيقظ عباس مبكرا ، وخرج
من المنزل قاصداً كشكه ليقابل إخوانه ويستحم معهم ،
واتفق أن خرجت فتاة الجيران من منزلها في تلك اللحظة
حاملة حقيبة الاستحمام ، فما إن وقع نظر عباس عليها

حتى أسرع الخطأ جازعاً وقد تذكر ما وقع له أمس
مع والدته...

ومضى أسبوع ، وذهب عباس إلى الكازينو عصراً
وقابل صديقه مراد ، فتصافحا وسارا يتنزهان ويتحدثان ،
وكانت الفتاة جوزفين صديقة زميله مراد تسير في رفقة
من صويحباتها ، فلما اقتربت جماء الفتيات من الصديقين
ترك مراد رفيقه واتجه نحوه وانحنى أمامهن مسلماً ، ثم
مكث برهة يحدث جوزفين ، وعاد إلى صديقه فوجده
واقفاً تجاه البحر وهو مقطب الوجه . فبادره بقوله :

— كنت أريد أن أعرفك بجوزفين .

— أنا ؟ !

— أجل

— أرجوك يا عزيزي أن تمحو من رأسك هذه
السخافات ، إني رجل جد ، ليس لي في هذه الأمور ،
وأريد أن أحافظ على أخلاقي .
فنظر إليه مراد في عجب وقال :

— أنت عبيط جداً

ومرت في هذه اللحظة فتاة الجيران في رفقة من صويحباتها ، فغمز مزاد صديقه وقال له :

— انظر يا عباس ، هذه جارتكم . يالها من فتاة ساحرة ، آه لو استطعت التعرف اليها .

فأدار عباس وجهه بسرعة متجنباً مرأى الفتاة ، وتمتم قائلاً :

— أسكت ، لعنة الله عليك وعليها ..

وتابع الصديقان سيرهما وهما يتضاحكان .

ولما عاد عباس إلى منزله ، قابلته والدته بوجه عابس ، وبعد أن تناول العشاء وأراد الصعود إلى غرفته قادتة إلى حجرة الجلوس وقالت له :

— مازلت يا عباس تسير على هواك ، ولا تتبع نصائح والدتك ..

فنظر إليها متعجباً وقال :

— أنا ... ؟

— لقد حذرتك من النظر والاهتمام ببنت الجيران
فلم تعمل بنصائحي ..

— وماذا فعلت ؟

— قابلتها مرة وأنت ذاهب في الصباح إلى الحمام ،
ونظرت إليها نظرة غرام فابتسمت لك ..

فصرخ الفتى :

— أنا ؟ أنا نظرت إليها نظرة غرام ؟

— وقابلتها اليوم في الكازينو وأنت بصحبة مراد ..
فابتسمت لك أيضاً .. أما أنت فصرت تضحك مع
صاحبك الخيث الذي يريد أن يتلف أخلاقك .

فصرخ عباس أيضاً وقال :

— أنا ؟ أنا يا والدتي ؟ الأمر ليس كذلك .
وأخذ يقص عليها الحقيقة بأكلها . ولكنها لم تمهله
ليتم حديثه ، وقامت في عنف وهي تقول :

— هذا آخر إنذار أوجهه لك . أتريد أن تحب بنت
رومي ؟ .. حذار ! إنك تضيع مستقبلك يا عباس

— ما هذا يا والدتي . أنا لا أحب أحداً ، لا بنت رومي
ولا بنت باشا ..

ثم ترك الحجرة غاضباً ، وقد اعتقد أن أخته الصغيرة
هى التى تقولت عليه زوراً كل هذا ، فاعتزم أن يؤدبها .
وفى صباح اليوم التالى خرج عباس إلى الشرفة المطلة
على البحر بعد أن تناول الفطور ، فوجد الست إقبال
جالسة تشتغل فى حياكة ثوب لها ، وهى امرأة معروفة بحبها
للهو بالرغم من تقدم سنّها ، ولها ماض حافل بالمغامرات
الغرامية . فاقرب منها وقال :

— ماذا تفعلين يا ست إقبال ؟

— أرتق ثوبى المهلهل القديم .. إن جيبى أصبح كقلبي
خالياً ..

ثم جعلت تنظر اليه طويلا نظرات غريبة وهى
تبتسم .. فقال لها فى شيء من الغضب :
— لماذا تنظرين إلى هكذا ؟
— حقاً لقد تغيرت يا عباس بك

— تغيرت ؟

— أجل ، كبرت ، ولكن ما هذا الشحوب ؟ ولماذا
أنت صامت مشغول الفكر هذه الأيام ؟
ثم ابتسمت ابتسامة كبيرة وقالت :
— إن قلبك بجيبك ملآن ، والحب كالذهب يشغل
الفكر ...

ورنت ضحكاتها الخليعة ، فنظر إليها عباس مدهوشاً .
ووضعت الست إقبال ما بيدها على المائدة ، وقامت إلى
عباس وهمست في أذنه :

— أقسم بالله لقد أحسنت الاختيار . بنت كالبرلنته
عيون فاتنة ، وقوام بديع ، والدم كالشربات ...
ثم شدت على يده وقالت :

— سيبيك . لا تهتم بشيء . كل قتي في سنك يعشق . :
وما أحلى الحب في هذه السن

وظهرت في هذا الوقت بنت الجيران تتنزه في الحديقة

فقلت الست إقبال فى انفعال وهى تكثر من الضغط على
يد الفتى :

— هاهى . انظر . . ما أحلاها !.. يا بختك يا عباس ،
لو كنت شاباً مثلك لحسدتك على حب هذه الفتاة . .
ثم واجهته وحدثت فيه وهى تقول :
— أشعر بغليان قلبك . . . إن عينيك تتكلمان . . .
وتركها الفتى عائداً إلى حجرته ، وهوى يقهقه بالضحك ،
وما كاد يقترب من الغرفة حتى طرق سمعه أصوات تتكلم
فى داخلها ، وسمع الأصوات تذكر اسمه ، فدنا من الباب
فى تمهل ، وأنصت فاذا بهما خادمتان تنظفان المخدع
وتتكلمان .

قالت الأولى :

— لا شك فى ذلك . . فهو يحب بنت الجيران .

فقلت الثانية :

— ولكن والدته دائماً توبخه

-- ماذا يهمه ؟ . . أليس هو الآن فى السادسة

عشرة ، سن الحب والبجبة ..

— فضلا عن أنه جذاب الملامح ... لقد أظهرت عدة
فتيات اعجابهن الشديد به . . ثم بدأتا تغيران الحديث .
فترك عباس مكانه ونزل إلى الحديقة وقد بدت على محياه
أمارات التفكير مشوبة بشيء من القلق . . : وأخيرا
شعر براحة غريبة . . وتاهت عيناه في الفضاء وأخذ
يستغرق في أحلام شبيهة ، وكان يردد هامسا لنفسه
ما قالته الست أقبال والابتسامة المرححة لا تفارق وجهه:
« كل قتي في سنك يعشق » ...

واقترب من السور الحديدي الذي يفصل بيته
عن بيت صديقه بنت الجيران ووقع نظره على الفتاة
وهي تتنزه في حديقته ، فجعل ينظر إليها خلسة ممتعا نظره
بجمالها ، ورأته الفتاة وابتسمت له فابتسم لها . . . وكانت
لحظة من أسعد لحظات حياته . . .

.... ومرت أيام وهو يراها فيقنع من رؤيتها
بتبادل التحية والابتسامات ..

ولكن حدث بعد ذلك أن لاحظ الخدم أن عباس
كثيرا ما ينسل من غرفته ليلا بعد أن تنام والدته ويتجه
نحو حديقة الجيران . فكانوا يتهامسون . . .

وبينما كان عباس يوما في خلوة غرامية مع فتاته في
سیدی بشر ، كانت والدته جالسة مع صديقاتها تفتخر قائلة
— إن ابني سيظل مثل الفتاة البكر ، ظاهر الذيل ،
لا يعرف شيئا من مفاسد هذه الأيام

اللَّهُ بِرَحْمَةٍ

الله يرحمه

كانت مقبرة سليم باشا في قراقة الأمام الشافعي تعج
بمختلف الفقهاء والطريفة والفراشين، يعدون العدة لاستقبال
المرحوم الباشا ضيفهم الجديد ، ويهيئون له مكانه الدائم
بجوار زملائه الأموات . وكان السرادق قد نصب في
الحوش ، وصفت الكراسي بنظام جميل . وجلس الفقهاء
حول القبر وأمامهم المصاحف يقرأون فيها مغمغمين .
وكان السقا قد رش الأرض في الداخل والخارج فبرد
الجو الحار إلى حد ما ، وهبت نسمة خفيفة داعبت الشجيرات
الجافة العابسة . واجتمع في الحارة حول باب المقبرة
الخارجي فئة من الشحاذين كانوا يتزاحمون بمنابكهم
ويتشائمون . وكان « السقا » واقفين صفين على جانبي
الباب يضربون بصنجهم ويوزعون الماء على من يرغب
ومن لا يرغب ، وهم يرددون قائلين :

— على روح المرحوم يعطشان سبيل
وجلس الحاج إبراهيم — الفراش الذي أرسلوه من
القصر ليراقب حركة الأعمال الجارية في المقبرة — خلف
الباب منكس الرأس ، يحدث نفسه في حيرة وحزن .
ومر عليه شيخ الطرية ذو العود الصلب والقوام الطويل
وقال له :

— ماذا تفعل هنا يا حاج إبراهيم ؟ أهذا ما كلفك
القيام به ؟

فرفع الحاج إبراهيم رأسه وقال :
— اتركني وشأني . إن الهم يقتلني
— إيه . الله يرحمه ويحسن إليه . هذه حال الدنيا
ثم خرج الطربي إلى الحارة واشتغل برهة بضرب
الشحاذين وتفريقهم . وما كاد يعود إلى الحوش حتى رجع
الشحاذون إلى مكانهم يزاحم بعضهم بعضا ويتشائمون . ولم
يغير الحاج إبراهيم جلسته ، وعاد إلى تفكيره المضطرب
والتحدث إلى نفسه . وأخيراً قام وقد عول على أمر .

وذهب من فور إلى شيخ الطرية ، وكان جالساً على قبر
مهدم يحفف عرقه . فدنا منه وقال له :
— أريد أن أستشيرك في أمر يا معلم . أمر يشغل بالي
ويحزني منذ أيام .
— وما هو ؟

. — لقد طلقت زوجتي ثلاثاً . . . وأريد أن أردّها .
فابتسم المعلم طويلاً وقال :
— الأمر هين يا حاج ابراهيم
— وكيف ؟

— أن تستفتي أحد العلماء فيحل لك المسألة في غمضة عين .
وسمعا ضجة وهرجاً ، فعلموا أن الجنازة قد وصلت . .
ودخل الفقهاء الذين يتقدمون النعش ، واحتلوا المقاعد
القريبة من الباب وهم ينفضون جيبيهم ، ويحففون
عرقهم ، ويكحون ويصقون . وسرعان ما اشتبكوا
في حديث مشوش يتعلق بنصيبتهم في الأجر والطعام . .
ودخل المولوية بلبدهم الطويلة يتهادون في حرامهم

الفضفاضة ، وأخذوا مكانهم في صدر السرادق ومن ثم
استغرقوا في خمرهم . . وتفرقت طائفة حاملي المباخر
والقمام في الحوش تطالب بالقهوة والسجائر وتنازع
الفراشين . وأطلق الشحاذون العنان للجاجتهم . وبدأوا
يحصرون المشيعين ويفرضون عليهم الضرائب . وعلت
صيحات السخط من كل جانب ، وخرج شيخ الطرية
يفسح الطريق أمام النعش ، وكان يضرب الجمع بعصاه
الرفيعة ويرفع صوته بالشتائم . . . ودخل النعش بين
هذا الصخب واللغط يشق طريقه نحو القبر ، والجثة
ترتطم في صندوقها كما ترتطم بقايا مركب غارقة على
الصخور . دخل النعش بين صفين من « الجمليتين » الذين
اشتدت بهم الحماسة في ذلك الوقت ، فجعلوا يصيحون
بالرحمة على الميت في نغبات غريبة ويضربون
صنوجهم ببعضها في شدة وعنف .

وتبع النعش جماعة المشيعين . وكانوا متعبين يعلوهم
غبار الطريق ، فدخلوا السرادق وانتشروا على مقاعده

حسبما اتفق . ومال شخص على رفيقه وأسر إليه نكتة ،
فأخرج الآخر منديله ووضع على فمه ليكتم به ضحكته .
ورفع شيخ مهدم رأسه ، والتفت إلى جاره وقال :
— الله يرحمه ويحسن إليه ، لم يترك فرضاً واحداً
في حياته .

وكان جاره مستغرقاً في تبرد يشبه النعاس ، ففتح
عينيه في جهد ، ومسح لثابه المتساقط على فمه ، وقال :
— سيكون نصيبه الجنة بلا ريب .
ثم أطبق عينيه وعاد إلى خموله .

ومر رجل من حاملي المباخر أمام الجالسين ، وجعل
يمسح في تظاهر دموعه الكاذبة ، واشتغل (الطرية) بأنزال
الجنة إلى مقرها الأخير ، وسمعت للمعاول أصوات جافة
مكتومة مصحوبة بشيء من الأتخاب والآنين . . وظهر
الحاج إبراهيم في ذلك الوقت على مقربة من طائفة المولوية
وجعل يدور بعينه فيهم . وأخيراً وقع اختياره على واحد
منهم ، رجل ذولحية رمادية مهيبة ، ووجه أحمر غليظ ،

وكان منكس الرأى يتمم بتسيحاته ، فتقدم نحوه وناداه
فى شىء من الحذر قائلا :

— يا سيدنا .

فلم يلتفت المولوى إليه ، وكرر الرجل النداء وهو
يدنو منه . ورفع المولوى رأسه والتفت حوله ليرى من
هو « سيدنا » فرأى الحاج ابراهيم ينظر إليه نظرة استعطاف
فعلم أنه هو « سيدنا » فقطب حاجبيه الغزيرين ، وتحمس فى
تسيحاته . ودنا منه الفراش فى خضوع ، ومال عليه قائلا :
— يا سيدنا لقد طلقت زوجتى ثلاثا وأريد أن

أردها . فما العمل ؟

فخدجه المولوى بنظرة غريبة . وأتم الحاج ابراهيم
كلامه وهو يمسح عينيه المبللتين بالدموع ، وقال :
— فى عرضك يا سيدنا ..

وكانت حبات المسبحة تجرى بين أصابع المولوى فى
سرعة عجيبة وأخيرا تكلم فقال :
— وكيف تريد رد امرأتك وهى طالق ثلاثا !

— أريد فتوى يا سيدنا .

ومد يده إلى المولوى وغمزه بقطعة من النقود .
فأخذها الرجل فى هدوء ودسها فى جيبه . وبعد أن أطرق
قليلا رفع رأسه وقال للفراش بلهجة متعازمة :

— وهل كنت فى حالة غضب شديد أفقدك الصواب
عند ما طلقت زوجتك ؟

— كنتُ لا أعى شيئا مما أقوله ومما أفعله .

— إذن لم يقع الطلاق شرعا . وزوجتك حلال لك

فأكب الحاج ابراهيم على يد المولوى يقبلها
وكانت حفلة الدفن . قد انتهت ، وأخذ المشيعون
يتفرقون . وخرج الحاج ابراهيم من المقبرة يحد فى مشيته
قاصدا منزله ، وبينما كان يمسح آثار الدموع من عينيه إذ
قابله أحد أصدقائه وبادره بقوله :

— ما فائدة البكاء يا حاج ابراهيم ؟ هذا هو حال الدنيا

فلم يعره الحاج ابراهيم اهتمامه ، وتابع سيره فى
اطمئنان وسرور . . .

القلم الأبنوس

القلم الأبنوس

— ١ —

خرج التلميذ زكي عبد الحميد من منزله صباحاً قاصداً مدرسته . ولما اقترب من باب المدرسة وجد زملاءه مجتمعين حول عبد الرحمن بائع الحلوى والأدوات المدرسية . فذهب إليه واشترى منه « باستليا » ملأ بها جيبه . ولفت نظره — في عربة البائع — مجموعة طريفة من أقلام الخبر المعروفة « بالأبنوس » فوقف أمامها يفحصها بنظره في اشتها . وبعد تردد دنا من عبد الرحمن وقال له :

— أرني قلماً من هذه الأقلام يا عبد الرحمن

فقال له الرجل :

— أتود شراؤه ؟

— سأرى

— إنه لا ينفعك . بل ينفع المدرسين وتلاميذ

السنة الرابعة

— دعني أراه أولاً

فأخرج عبد الرحمن القلم وناولہ إياه . وأخذ زكي
عبد الحميد يقلبه في يده بسرور . وتذكر في ذلك الوقت
قلم فوزي أفندي — معلم الأنجليزى — بحبره الأحمر .
فلبعت عيناه وخفق قلبه . وأدخل يده في جيبه ، وعد
فقوده فالفأها خمسة قروش صاغاً . فالتفت إلى عبد الرحمن
وقال له :

— بكم هذا القلم ؟

— بعشرين قرشاً . ولكن لأجل خاطرك أنت بخمسة

عشر فقط

— يمدني أن أعطيك خمسة الآن والعشرة غداً

— لا بأس

— ولكن لا بد له من حبر أحمر

— هالك زجاجة بتعريفه تساوي عند غيري نصف فرنك

.. أشكرك يا عبد الرحمن . أشكرك ، أنت رجل
طيب القلب جدا .

وأخذ القلم وزجاجة الحبر . وقفز نحو المدرسة
والدنيا لا تسعه

— ٢ —

ودق الناقوس ودخل التلاميذ فصولهم . وما إن حلت
فترة الراحة حتى نزل التلاميذ يتسابقون إلى اللعب في فناء
المدرسة . ولكن زكى عبد الحميد انزوى في ركن من
الأركان واشتغل بملء قلبه الجديد بالحبر الأحمر . ومرت به
ضابط المدرسة وقال له بلهجة متغطسة :

— ماذا تفعل يا ولد ؟

فأسرع زكى وأخفى قلبه في جيبه ، وقال على الفور :

— لا شيء يا أفندى

ورأى الضابط يدي التلميذ ملوثتين بالحبر ،

فصرخ فيه :

بـ اذهب يا كلب إلى المغسل ، وتظف يديك في
الحال .

وقام زكي عبد الحميد مدعناً للأمر .
وفي فترة الظهر ذهب معظم التلاميذ إلى حوش الكرة
يتفرجون على فرقة مدرستهم وهي تزاول تمرينها اليومي ،
ولكن زكي قصد ركنه المختار ، واشتغل بالكتابة بقلبه
الجديد .

ودنا منه أحد زملائه وقال له :
— أتلعب يا زكي ولا تذاكر القرآن؟
فرفع زكي عبد الحميد رأسه ، وكان مكباً على دفتريه ،
ونظر إلى زميله مدهوشاً وقال :
— وهل عندنا اليوم قرآن ؟
فقهقه صديقه وقال :

— أنسيت أن اليوم يوم الأربعاء ، وسيمتحننا
الشيخ زكريا في جزء تبارك . أظنك مشتاقاً إلى
مسطرته الحادة

— ما هذا المزاح؟ امتحان القرآن غداً !

— بل اليوم . صبح النوم

وتذكر زكي عبد الحميد أن اليوم يوم الأربعاء حقاً
فارتجف، وترأت له مسطرة الشيخ زكريا وورقة العقاب.
فقام إلى صديقه وقال له :

— ألا تعيرني جزء تبارك لأذاكر فيه ؟

— لقد تركته في الفصل

— وهل ذا كرته ؟

— من أوله إلى آخره ...

وقام زكي عبد الحميد لبحث عن زميل يعيره جزء
تبارك . وجدته في البحث طويلاً هنا وهناك ، ولكنه لم
يعثر على ضالته . فذهب إلى حوش الكرة وجعل يتفرج
بنفس ممتعة على جماعة اللاعبين

وأخيراً دق الناقوس ودخل التلاميذ قاعة الطعام .
وتناول زكي عبد الحميد غذاءه بلا شهية . وبعد الانتهاء من
الأكل عاد التلاميذ إلى قصولهم .

ودخل زكى حجرة الدرس مطأطئ الرأس صامتاً
يقرض أظافر يديه ، وجلس أمام قطره كالصنم ، وأصوات
إخوانه التلاميذ وهم يذاكرون تطن في أذنه طنيناً مزعجاً.
وظهر الشيخ زكريا على عتبة الباب ، فانقطعت
الضوضاء في الحال . وصرخ الأستاذ :

— ما هذه الجلبة يا غجر :

ودخل كالنمر الغاضب وهو يقول :

— جلوسا

ولمح زكى عبد الحميد في يد الشيخ ورقة العقاب ،
فارتجف وازداد الكفهرار وجهه . وقطع الأمل في ذهابه
عصر اليوم إلى حديقة الحيوانات حيث كان والده قد
وعده بذلك ، وأعد نفسه للفضيحة بين الخدم .

وفتح الشيخ زكريا دفتر الأسماء ونادى التلميذ الأول ،
وطلب منه أن يقرأ سورة « نون والقلم وما يسطرون »
فتلثم في قراءته ، فترك الشيخ مكانه بعد أن تسلى
بمسطرتة ، وهجم على الصغير فأطار طربوشه ثم هوى على

رأسه ضرباً في وحشية غريبة ، والتلميذ يولول مسترحماً .
وعاد الأستاذ إلى مكانه وقيد اسم التلميذ في ورقة العقاب
وهو يقول له :

نـ أقعد محبوس للغروب

وكانت عيون التلاميذ لا تفارقه وهم في رعب كبير .
ورفع زكي يده إلى رأسه ثم مسح عرقه البارد المتصبب
على جبينه .

ونادى الأستاذ التلميذ الثاني وكان جريئاً قوياً ذاكرة
فقرأ قراءة منتظمة سر لها الأستاذ فقال له :

— أقعد شاطر

واستمر الشيخ ينادي التلاميذ وهو بين ضارب
بسلاحه ، أو محبذ بلسانه ، إلى أن جاء دور زكي عبد الحميد
فطلب منه الأستاذ أن يقرأ سورة « الحاقة » فلم تتحرك
شفاه بكلمة . وأعاد عليه الأستاذ طلبه ، فظل زكي صامتاً
كالتمثال . فقام إليه وصرخ فيه قائلاً :

نـ اقرأ يا ولد صورة الحاقة وإلا قتلتك بهذه المسطرة

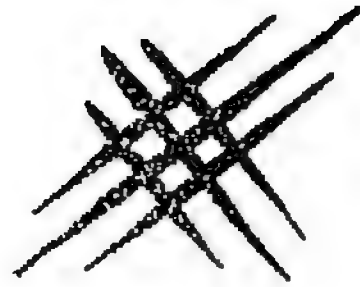
فانفجر زكى باكياً ، وأخبر الشيخ بأنه نسي أن يأخذ
« الجزء » معه أمس للمذاكرة . وأخذ يستعطفه ، ويؤكد
له أنه لن يعود لمثلها مرة أخرى . فاحمرت عينا الشيخ
زكريا ، وشمر عن ساعده . وأطار طربوش الطفل . ثم
رفع يده ليهوى بها على رأسه ... ولكنه أنزلها هادئة إلى
جانبه . ولم يمس التلميذ ... ومد يده إلى جيب زكى بكل
بساطة وتناول قلم الحبر منه دون أن يشعر زكى .
وقال له :

— اقعد يا زكى ولا تعد إلى مثلها ، ساحتك اليوم
فقط ..

فجلس التلميذ وهو لا يصدق بنجاته . ولكنه ذهل
إذ رأى الأستاذ يفحص في اهتمام قلمه الذى اشتراه صباح
اليوم من عبد الرحمن . ومرت بخاطره ذكرى مبراة صديقه
عزوز التى طواها الشيخ فى جيبه مرة ولم تعد .

ورجع الأستاذ إلى مكانه ، وعاد إلى عمله ينادى
التلاميذ إلى أن انتهت الحصة . فقام مشيعاً بالاجلال

والاحترام . وما كاد يتوارى عن الأنظار حتى طفق
زكى عبد الحميد يبكي بحرارة . فسأله أحد رفاقه :
— أتبكي ولم ينالك أى عقاب ؟
فنظر اليه زكى بغضب ولم يجب ، وأمسك دواة الحبر
الاحمر وقذف بها من الشباك وهو يعض يديه ، فضج
التلاميذ حوله يضحكون ...



الأجر

الأجرة

دخلت أم لبيبة على سيدتها إقبال هانم ، وأخبرتها بأن الحوذي قد حضر وهو يطالب بأجرته ، فقطببت الهانم ما بين حاجبيها ، ثم طلبت إلى أم لبيبة أن تذهب وتخبره بأن يحضر بعد الظهر فخرجت المرأة مذعنة للأمر وما كادت تبلغ الرجل رسالة سيدتها حتى انفجر شاتما مهددا . وظل يطالب بأجرته في قحة وغلظة .. وأخيرا انصرف وعاد بعربته إلى موقفه ، وقد عزم على استيفاء دينه بعد الظهر مهما كلفه الأمر .

لقد خرج الأسطى شحاته بأقبال هانم في عدة نزعات طويلة لم يستوف أجرته حتى الساعة . وفي كل مرة يأتي للبطالة بدينه يقابل بالتسويق والتأجيل ، وللرجل أسرة كبيرة يعيش معها في فاقة طاحنة

والأسطى شحاته في العقد الرابع من عمره . وهو

رجل طروب بالرغم من بؤسه ، يسمعه الناس وهو محتل
مقعد الحوذية واضعاً رجلاً على رجل يترنم بالمواويل
الغزلية . وإذا ما مرت أمامه فتاة مليحة عوج طربوشه
المهدم القدر ، وجعل يهز حذاءه الذي تطل منه أصابعه
وينطلق في مغازلتها في حرارة واشتياق . ثم يتنهد في أسف
شديد وينهال على خيوله المكدودة ضرباً وشتاً .

* *

لم تأبه إقبال هانم بما وقع . وقامت إلى المرأة وجعلت
تزين نفسها محاولة إخفاء شيخوختها المبكرة تحت طلاء
المساحيق . وكان وجهها مبقعاً تغزوه التجاعيد . ذا شعر
أصفر فاقع انكشفت أصوله عن الصبغة فبان له لوانان
متباينان يزيدانه بشاعة . ولما أتمت زينتها تمددت على
المقعد الطويل وهي تتنهد ، وأخذت تقلب بين يديها
مجموعة من الصور .

وإقبال من أسرة معروفة ، كانت في صباها مثال الوداعة
والطهارة والجمال . فطوحت بها الأقدار في يد زوج

مقامر سكير سىء السمعة ، أفسد عليها حياتها ونفسيّتها .
وانسأقت بعد وفاته فى الطريق الذى رسمه لها ، وعاشت
فى حمأة الرذيلة تنحدر يوماً بعد يوم إلى هاوية البؤس
والتعاسة .

وعاد الحوذى بعد الظهر وجعل يصرخ مطالباً بأجرته
فلم يكثرث لأمره أحد . فترك العربى فى عهدة أحد الصبيان
وأخذ يدق بشدة على الباب ، وكان غير مقفل . وأقبال
— ساعتئذ — فى حجرتها بمدة على مقعدها الطويل ، وهى
بغلالة النوم الشفافة ، مسترسلة الشعر ، تامة الزينة ،
تستمع إلى صخب الحوذى مبتسمة . ودخلت عليها
أم لبيبة ، فلم تدعها إقبال تفتح فاها ، بل قالت لها على
الفور :

— وماذا تريد منى أن أفعل ؟ ليس عندى نقود .
فاصرفيه على أن يأتى فى وقت آخر .

وكان الحوذى فى ذلك الوقت قد اقتحم الباب ، ودخل

الردهة وهو يصيح في قحة مطالباً بدينه ، فهرعت اليه
أم لبينة توبخه على جسارته ، وتحاول إخراجه . وظلا
وقتاً يتشامان ويتراميان بقوارص الكلم . وبعثة ظهرت
إقبال على عتبة باب حجرتها ، وهي في أكمل زينة ، عارية
القدمين والذراعين ، وقالت بكل هدوء :

— ماذا جرى يا أم لبينة ؟ وما هذه الغلبة ؟

فتكلم الحوذى مجيباً إياها :

— أريد نقودى التى تودين أكلها على :

فابتسمت إقبال وقالت :

— نريد أكلها عليك ؟ ياسلام ! ليس هذا عشمنا فيك

يا أسطى ..

وانتبه فجأة الأسطى شحاته إلى هذا الجمال العارى البادى

أمامه وزاغت عيناه ، فذهبت عنه حدته ، وقال وهو

يلع ريقه :

— أنا معذور يا ست ، صاحب عيال ..

وجعل يحملق بعينه في جسمها الأبيض الناعم . فلما

رأته متردداً شارد اللب ، قالت له بنعومة :
— ألا تصدقني يا أسطى بأن حقيقتي خالية من النقود
الآن . تعال أريك إياها .

ودخلت الى حجرتها المواجهة الى باب الردهة ،
وتقدم الأسطى شحاته حتى وصل الى باب هذه الحجرة .
وكانت الستائر مسدلا نصفها ، والضوء خافت ورائحة
العطر تملأ الجو . فأحس ييقظة غريبة في مشاعره ،
وكأنه انتقل الى مكان سحري كله أسرار وأحلام . وأخذ
يحدق في إقبال بنظر شره ، وهي تسير جيئة وذهاباً أمامه
نصف عارية تبحث عن حقيقة النقود . وتذكر الأسطى
شحاته الحسان من النساء البيض اللاتي كن يركبن عربته
مع عشاقهن ، واللاتي شغف بهن طويلا ، وظل يمني
النفس بهن ، فلم يرجع إلا بالخيبة والحسرة . . . وعثرت
إقبال على الحقيقة ، فدنّت منه ، وقالت له بصوت وديع
وهي تفتحها أمامه :

— هأنت تراها خالية من النقود ... ألا تأتي في الغد؟

ونظرت اليه نظرة استعطاف منطوية على دلال كبير .
فلمعت عينا الأسطى شحاته وانفرجت شفتاه عن ابتسامة
غريبة ، وقال :

— لا أستطيع الخروج من هنا يا هانم . دخول الحمام
مش ذى خروجه !

فابتسمت إقبال ووقفت أمامه برهة تحديق فيه . ثم
ارتمت عليه بغتة وقبلته في فمه قبلة طويلة . فأحس الرجل
كأن الدنيا تدور به وسرت في جسمه رجفة كهربائية لم
يستطعم مثل لذتها في حياته كلها

ولم يعد الأسطى شحاته يطالب إقبال هانم بدينه
بعد اليوم . . .

أب وابن

اب وابن

استيقظ عبد الخالق من نومه في الساعة العاشرة صباحاً — أى بعد خروج أبيه من المنزل — وتناول الفطور وهو يصخب ويشتم . وذهب الى المطبخ ، فضرب الجارية مبروكة لأنها لم تحبس القط فلفل وتركته يضايقه وقت الأكل . ثم قصد الى والدته حيث كانت تشرب القهوة وتستدفيء بنار الموقد . وجلس بجوارها صامتاً مقطب الوجه ، ثم أخذ يتنهد ، فلاحظته أمه على رأسه وهي تبسم وقالت .

— أنا أعرف ما الذى يشغل بالك يامكار .
— ولكنك لا تريد أن تعملى لى شيئاً .. أنتِ
لا تحبينى يا أماه . لا تحبينى مطلقاً
فأحاطته يديها وقالت :
— أتجرو أن تتفوه بمثل هذا القول يانا كرا الجليل ؟

— إتنى أقول الحقيقة . لو كنت تحببني حقاً لأنهييت
مع والدى هذا الموضوع .
فتمتت الأم قائلة :

— ولكنك تعلم يا عبد الخالق أن أباك . . .
ثم غضت من بصرها ، ولم تم جملتها . وأخذت
تعبث بطرف ثوبها . وتكلم عبد الخالق فى حدة فقال :
— أقسم بالله إنك إذا لم تفاتح ، أبى وتقنع به هذا
الزواج اليوم فلن ترى وجهى بعد الآن ، ولن تسمى
عنى إلا أسوأ الأخبار .
فأمسكت المرأة برأس ابنها وحدثت فى وجهه بقلق ،
وقالت :

— ما هذا الكلام يا عبده ؟
— كلة واحدة . إذا لم تكلم أبى اليوم وتبى معه
هذه المسألة ، فسيصلك نعي غداً . . سوف أريحكم جميعاً
من وجهى وأريح نفسى من هذه العيشة التى لا تطاق .
— عبده . عبده . اخص عليك يا عبده !

وصمت الابن وهو يحرق أمامه بعيون نارية ، وكانت
الأم تلاطفه على ظهره محاولة تهدئة غضبه .

ودخل الحجرة في ذلك الوقت القط فلفل — وهو
قط أسود اللون غزير الشعر بأجفان مسلوخة — يعزه
محجوب افندي والد عبد الخالق .

فاكاد يقع بصر الفتى عليه حتى تناول حذاءه ورماه
به وهو يصرخ قائلاً :

— والله لأميتنك يوماً من الأيام يا ابن الكلب .
نخرج القط يجرى قافزاً وهو يموء مواء الألم والذعر .
وقام عبد الخالق متهيئاً للخروج ، فقالت له أمه في عطف
ومدلة .

— الى أين يا عبده ؟

— الى جهنم ياستى . أتريدن أن تحبسني في البيت
معك كبروكة وفلفل ؟

— وهل اعترضت على خروجك يا بني ؟ اذهب
وفرش نفسك وانبسط .

— معلوم ، أخرج وافرش نفسى وانبسط .. أما
القط فلقل فأقسم بالله العظيم إني سوف أميته . إنه يعيش
فى منزلنا كالأمير لا يحسر أن يكلمه أحد على حين أعيش
أنا كالكلب الذليل .

— إنه قط أيبك يا عبد الخالق ، وانت تعرف معزته له .
فصرخ عبد الخالق :

— أبى . لعنة الله على أبى وعلى جدوده وعلى جميع
من انتسبوا له .

فنظرت إليه أمه فى عجب وخوف ، وتمتمت :
— عيب يا ابنى عيب .

— آه ، لا تردى على . لئلا تكون العاقبة وخيمة عليك
فأجابت صاغرة :

— حاضر يا بنى .

ووقف عبد الخالق أمام المرأة ، وهو يصلح طربوشه
ويقتل شاربہ الصغير ويضمخ شعره بعطر والدته ويدقق
النظر فى نفسه معترأ بقوامه الممتلئ وعضلاته المفتولة ،

ثم استدار وقال لها في لهجة هادئة لا تخلو من أمر :
— إيدك على ريال .

قتهدت المرأة ، وأخرجت له قطعة النقود من عبا
بلا كلام . فأخذها منها وخرج يسرع الخطا نحو السلم .
وسارت هي خلفه ورفعت صوتها قائلة :

-- انزل السلام على مهلك يا عبده . الدهليز مظلم .
حاسب على نفسك يا ابني ، ربنا يحرسك وينجيك .

نزل عبد الخالق الى الحارة وجعل يخطر فيها جيئة
وذهاباً في إعجاب وزهو ، وعيناه لا تفارقان منزل أم محمد
الدلالة . وكان يصفر ويطوح بعصاه في يده . وبعد حين
خرجت من منزل أم محمد فتاة نحيفة الجسم تأتزر بالملاية
اللف ، وتحتذي حذاء أبيض وجورباً خفيفاً بلون الحذاء ،
وصدرها مكشوف تتلأأ عليه حبات القلادة . كانت
متزينة على الطريقة البلدية . حواجب مزججة بالخطوط ،
وعيون ملؤها الكحل . وخدود يلمع عليها «حسن يوسف»
كأنها جمرة من نار . وكانت تسير مترنحة الأعطاف في

خلاعة ظاهرة ، وتنظر حولها في ابتسام ودلال . فما كاد
يرأها عبد الخالق حتى هدأ من سيره ، ونظر اليها مبتسماً
وتنحج . فضحكت ضحكة خافتة ، وتابعت سيرها غير ملتفتة
إليه . فدنا منها وقال لها في صوت منخفض :

— إلى أين ؟

فرمته بنظرة كلها مداعبة وغنج وقالت :

— الله . وما شأنك بي ؟

— ما شأنى بك ؟ يا سلام يا فايقه . غداً سيكون لى

معك شأن كبير . .

ثم كح طويلاً وقال :

— المسألة ستنتهى عن قريب . كل شىء يسير وفق

المرام .

فطأطأت الفتاة رأسها متظاهرة بالخجل ولم تجب .

وعاد عبد الخالق إلى الكلام فقال .

— لن تمضى أيام حتى تكونى لى يا فايقه .

وأمسك يدها وضغطها فى شغف ، فقالت له وهى

تتظاهر بسحب يدها منه :

— الله . ألا تخشى أن يرانا الناس ؟

— لا أخشى أحدا . أنت معبودتي . أنت حياتي . .

أنت . .

فقاطعته :

— يادى النصيبة . أترك يدي لئلا يرانى أحد من

معارفى .

فترك يدها وهو يضحك . ثم قال لها :

— هل فاتحت أمك فى الموضوع ؟

— أبداً . . ولكنها فاهمة . . إننا منتظرون زيارة

من والدتك .

— ستزورك غداً

— وهل وافق أبوك :

— ألى . . . وما دخل أبى فى هذه المسألة ؟

فطأطأت رأسها ، وجعلت تداعب طرف ملامتها ،

وقالت متممة :

— والله خايفه أبوك يفسد الحكاية
فأجابها فى حدة .

— يقدر ... !

فنظرت اليه نظرة فيها حزن واشفاق ، فارتجف
عبد الخالق وقال لها بصوت خشن :
— أنت واهمة

وكانا قد وصلا إلى الشارع العمومى فاضطرا أن
يفترقا . وركبت فايقة الترام من المحطة القريبة ، أما عبد الخالق
فعدر الشارع إلى الحارة المقابلة ، وسار فيها وهو مطرق
الرأس متجههم الوجه مستغرق فى تفكير عميق . وبينما
كان على هذا الحال إذ شعر بيد وضعت على كتفه ،
فالتفت فرأى صديقه دسوقى يتسم ويقول :

— الله . ما هذه السحنة المقلوبة يا عبد الخالق ؟ وفى

أى شىء تفكر ؟

— أنا ؟ لا شىء ...

— كيف تقول لا شىء ؟ والذى يراك لا يعرفك

— يا سلام
— عاشق والا مفارق ياسى عبد الخالق .
— لا عاشق ولا مفارق ياسيدى
— والبنت فايقة يا حظ ؟
— أتركنا من هذا الموضوع ، اعمل معروف
— المسألة بسيطة لا تحتاج إلى كل هذا . ما الذى يمنعك
من قراءة الفاتحة الآن . ثم الدخلة لما ربنا يفرجها
— أنا لا يعوزنى المال يادسوقى . والدتى متكفلة
بكل شىء . انما . . .
— . . . المسألة متوقفة على أهلك . . .
نخفض عبد الخالق رأسه وجعل ينكت الأرض
بعصاه . وأتم دسوقى كلامه وقال :
— أقول لك الحقيقة . إن أباك زاد عن الحد . لو
كنت منك لم سألت عنه . كن رجلا يا شيخ . بلا
كلام فارغ .
فرفع عبد الخالق رأسه ، ونظر إلى صديقه بعينين

كأنهما بقعتا دم ، وتبتم بكلمات غريبة غير مفهومة .
وبعد صمت ثقيل تكلم دسوقي فقال :
— أتعرف من الذى يحرص أباك عليك ؟
— من ؟

— الأسطى ييوى الحلاق
— ابن الكلب .. !
— ما رأيك فى الترصد له الليلة وضربه علقه ؟
— فكرة صائبة
— يمكننى جمع الأخوان هذا المساء . وننتظره فى
نهاية الحارة وهو عائد بعد قفل الدكان
وسار عبد الخالق ودسوقي وقد أخذ كل منهما يد
صاحبه وهما يتهامسان

وفى المساء عاد عبد الخالق إلى منزله ، واتفق
مع والدته على أن تفتح أباه فى أمر الزواج . وفيما كانا
جالسين على الكنبه يتحادثان إذ سمعا الباب يندق ، فعلما

مَن القادم ، واستعدا لمقابله ، وهرولت مبروكة الجارية
إلى جبل « السقاية » فشددته ، ودخل محبوب افندي وهو
مقطب الوجه ، والقط فلفل يسمع بين رجله . واتجه
كالعتاد نحو تقفية الدجاج ودقق النظر فيها ، ثم أخذ
يسب الجارية لأهمالها نظافة المكان . فسمعه زوجته
ومالت على ابنها وهمست في أذنه قائلة :

— أبوك معكوس اليوم يا عبد الخالق

فأجابها الشاب في حدة :

— معكوس أو غير معكوس لا بد من أن تكلميه

في الموضوع

وضعه محبوب افندي السلام وهو يزوم ، ودخل
حجرة الجلوس حيث زوجته وابنه جالسان ، فلما إن وقع
بصره على عبد الخالق حتى كثر عن أنيابه ، ووقف أمامه
منتفخا في عتو بقامته القصيرة وبجسمه النحيل ووجهه
الأنحف ، وقال :

— كيف تهرأت اليوم هلى ضرب بيومي افندي ياولد ؟

فنظر الابن إلى أبيه متحدياً إياه ، ولكن سرعان
ما خفض بصره وقال في لهجة مستكنة :

— أنا ؟ لا والله العظيم

— العظيم لما يسخطك . قلت لك كيف تجرأت يا مجرم
على ضرب صديقي يومى افندى ، انطق وإلا أنطقتك
بالرغم منك

— من الذى قال لك ذلك ؟ أقسم برأسك يا أبى . . .
— كنتم جماعة ومعكم دسوقي الولد التالف الذى
مصيره اللومان والذى حرمت عليك أن تصاحبه . وقد
ترصدتم له فى نهاية الحارة .

— الناس يكذبون عليك يا أبى

— اخرس . يكذبون على أنا ، أتجسر على هذا القول
أمامى ؟

وتقدمت الأم نحو زوجها وعلى فمها ابتسامة ذليلة
وقالت :

— هدىء روعك ياسى محبوب . الولد جاهل

لا يعرف أن يتكلم. يمكن يكون مظلوم ، أقعد على
الكنبة ، سأعمل لك فنجان قهوة من البن العال الذى
أعطنى اياه حرم الباشا ، البن الذى قلبك يحبه .
وتضاحكت فى تكلف محاولة ادخال السرور على
قلب زوجها

فنظر الرجل اليها طويلا وقال :

— سبحان الله فى طبعك ياستى

ثم صاح فى وجهها قائلا :

— قلت لك مائة مرة لا تتداخلى فى ما لا يعينيك

يا امرأة . أنتِ التى أفسدت هذا الولد ، أنتِ المسؤولة
عن كل هذه المصائب .

فجعلت تربت يديها على كتفه وهى تقول :

— كلامك كله مضبوط ياستى محبوب ، أنا أستحق

ضرب الجزم . ولكنك تعلم قلب الأم . والولد والله

العظيم نيته سليمة . وأولاد الحرام كلامهم كثير . تعال

اجلس هنا وروِّق دمك . سأذهب فى الحال لعمل القهوة .

وهرعت إلى المطبخ وعبد الخالق يتبعها . وجلس
الأب على الكنبه يحفف عرقه . ثم أخرج من جيبه
مسبحة أخذ يداعب حباتها مداعبة عصبية ، وعادت الأم
بعد برهة وجيزة ومعها صينية القهوة يفوح منها عطر
المستكى والحبهان . وصبت لزوجها فنجانا وناولته إياه
وهي تقول :

— قهوة ملوك . أقسم برأسك الغالى أنه لا يوجد فى
مصر كلها من يستطيع أن يعمل لك قهوة كهذه . ألا
تعترف بأنى أحسن قهوجية فى البلد ؟

ونظرت إليه تستجديه الابتسام والبشر . فلم يجبها
محجوب افندى بشيء ، وظل فى عبوسته يداعب حبات
المسبحة وينظر فى اتجاه آخر . ودخل عبد الخالق الحجرة
فى سكون ، ووقف بعيداً بجوار الباب . وجلست أم عبده
متربعة على الأرض بجوار قدمى زوجها . وعم المكان
صمت ثقيل لم يسمع فيه إلا صوت محجوب وهو يحتسى
القهوة ، وبعض تنهدات من زوجته . وكان عبد الخالق

وأمه يتبادلان النظرات فى الخفاء بين فترة وأخرى
وأخيراً مدت الأم يدها ، وجعلت تمسك قدمى
زوجها ، ثم قالت بصوت خافت وعيناها لا تفارقان
الأرض :

— أريد منك شيئاً ياسى محبوب .
فأجابها فى لهجة بين الغضب والرضا :
— وما هو ؟

— عدنى أولاً بالقبول
— أمرك عجيب ! أخبرنى أولاً ما الذى تطلبينه ؟
فأكبت على قدميه تقبلهما فى انفعال وهى تقول :
— اعمل معروف ياسى محبوب
فأجابها وهو يحاول سحب رجله :
— ماذا تريدن ؟

فرفعت إليه عينيها المبللتين بالدموع وقالت :
— أريد أن أفرح بعبد الخالق ياسى محبوب .

فخلق الرجل فيها في دهشة لا تخلو من غضب
وقال :

— تفرحين بعبد الخالق ؟ تفرحين بهذا الولد
الخسران ؟

— اعمل معروف يا سى محبوب . كلة القبول منك .
والباقي كله على

فلم يحبها محبوب افندى وعاد يداعب مسيخته .
وأتمت هي كلامها في لهجة كلها استعطاف ومذلة :

— أريد أن أرى لى أحفادا ! أتمتع برؤيتهم قبل أن
أموت . أحفاداً أضهم إلى صدرى وأقبلهم ، أحفاداً لنا
يا سى محبوب يملأون البيت سعادة ونوراً .

فكح الرجل عدة كحات دون أن يتكلم .
وبعد صمت قصير عادت الأم الى كلامها فقالت وهي
مطأطئة الرأس

— إنها فتاة يتيمة ومنكسرة من الجيران . حبايبنا

من زمن قديم

فنظر زوجها إليها وعلى فمه ابتسامة استخفاف وقال :
— أظنك تعنين بنت أم محمد الدلالة ، البنت التي
تخرج الى الشارع بالأحمر والأبيض ، وتترقص في مشيتها
مثل الغوازي

ف نظرت إليه أم عبده نظرة عتاب وقالت :
— فايقة بنت أم محمد ؟ ما لها ؟ بنت مؤدبة وعاقلة
— ماشاء الله على اختيارك اللطيف . . . تريدن أن
تزوجي ابنك من بنت دايره طول النهار في الشوارع .
أقسم بالله إن هذا الولد لن يرى يوم راحة في الدنيا مادمت
أنت معه

فاهتز الفتى محموما ، وأحس بالنيران تأكله ، واكتست
عيناه بضباب كثيف ، وانطلقت أمامه ذكريات حياته
جامحة في اختلاط . مرت مرور البرق في السماء الملبدة
بالغيوم . وتراءى له شبح والده الكريه ينهال عليه بالسياط
الحامية يمزق جسده ، وغير بعيدة عنه فايقة محبوبته تفر
جازعة وهي تولول ، وبالقرب منها دسوقي صديقه يضحك .

ملء فيه ضحكات متتابعة . . . وأحس برجفات كهربائية
متوالية تزلزل كيانه ، والتفت حوله فرأى الدنيا حمراء
قانية فصرخ يقول :

— مدمت أنت معي فلن أرى يوم راحة أبدا . .
فالتفت محبوب افندى إلى ابنه وهو لا يصدق أذنيه
وأرسلت عيناه شرراً وقال :
— ماذا تقول يا كلب ؟

ونظرت الأم إلى ابنها ، ثم إلى زوجها ، واصفر وجهها
وارتجفت ركبناها ، وتكلمت بصوت متقطع خافت موجهة
الكلام لابنها :

— عيب يا عبده . هذا أبوك
فصرخ الفتى مجيئاً بصوت رن صده في المكان رنيناً
هائلاً وقال :

— أبى ! لا أعرف شيئاً اسمه أبى
ثم نظر إلى محبوب افندى وقال :
— سأ تزوج من فائقة رضيت أم لم ترض . فاهم ! لست

صغيراً لتتحكم في أهوائى ، سامع ؟
وأحس محجوب افندى برهبة غريبة ، وتحرك على
الكنبة محاولاً استعادة شجاعته وقال متمتماً :

— أين عصاى ؟ إيتونى بها
ولكنه لم يكده يتم جملة حتى رأى عبد الخالق يهجم
عليه . وفى لحظة كانت يدا الفتى تضغطان رقبة أبيه ،
وأظفاره ناشبة فى لحمه !

وأخذ الأب يجاهد ما استطاع لاستخلاص حياته من
يدى ولده ، ولكن يدي عبد الخالق كاتسا كطوقين من
حديد حول رقبتة . وجاء القط فلفل ووقف بباب الغرفة
يحدق فى الأب وابنه بعينه البراقطين ، وهو ناشر أذنيه
بقوة ، وذيله المنتصب يهتز هزات عصبية ، فرماه عبد الخالق
بنظرة حادة تجلى فيها الحقد والكراهية وجعل يضغط عنق
أبيه ضغطاً شديداً

يحفظ في البوسطة

يحفظ في البوسطة

في يوم من أيام الآحاد وحديقة جروبي مكتظة
بجمهورها الأنيق ، دخل فكرى بك يتدحرج بجسمه
الكروى الغليظ ، ويلتفت حوله مبتسما بوجهه المفرطح
وعينه العشاوين . ثم اتجه نحو ركنه المعهود وجلس
على مقعد ذى مسندين ، ووضع رجلا على رجل ، وجعل
يرمق السيدات بنظره الجشع من خلف نظارته السمكة
الزجاج . وكان يأتي بحركات متكلفة متصنعا فيها الرشاقة
والتجمل لي جذب نظر السيدات إليه . فسخر منه بعضهن
وأدرن له ظهورهن . ولم يأبه له بعضهن على الإطلاق .
وفيما كان مستغرقا في مناوراته الغرامية الفاشلة ، إذ
سمع صوتا يقرئه السلام ، فالتفت نحوه فرأى صديقه
كاملا يجلس على مقعد بجواره ويقول له :

— أنت دائماً محول نظرك نحو النساء؟ أعوذ بالله .
أرحم نفسك يا أخى .

فاجابه فكرى وهو يتسم:
— وما الذى يضايقك؟

— لا يضايقنى شيء ، إنما أنا أرثى لحالك ..
وكامل شاب أنيق ، جذاب الملامح ، ليس له هم فى
الحياة غير ملابسه وسيارته ، فهو وعربته نموذجان
صادقان من آخر طرز .

وبعد قليل ظهر من بعيد شاب طويل القامة عريض
الأكتاف ، يسير فى تودة وتعاضم ، ويرمق الناس بنظرات
جافة فيها ترفع وازدراء ، فصرخ كامل قائلاً :
— مراد !

وجاء مراد إليهما وسلم عليهما صامتا ، ثم جلس فى
أنفة ورزانه ، وما كاد يستقر فى مجلسه حتى تكلم كامل فى
حماسة قائلاً :

— أتخبران فى كم دقيقة قطعت المسافة من المنزل

إلى هنا في سيارتي البويك الجديدة ؟
فأجابه فكرى وهو ينظف زجاج نظارته :

— فى عشر دقائق

والتفت كامل نحو مراد منتظراً إجابته ، فمط مراد
شفتيه فى غير اكتراث ، وقال فى هدوء متكلف وإطالة
ليس لها مسوغ ، وهو يتأمل دخان سيجارته :

— فى خمس دقائق

فأجاب كامل فى لهجة انتصار وافتخار :

— ثلاث دقائق ونصف دقيقة ، لا أكثر من ذلك .
ومرت فترة صمت قصيرة قال على أثرها مراد وهو لم
يحول نظره عن دخان سيجارته :

— إذن فسيارتك تسير بسرعة عشرين ميلاً فى الشوارع
المزدحمة .

فأخرج كامل المونوكل ، وأحكم وضعه على عينه
اليسرى وقال :

— وثمانين فى الشوارع الخالية

فأصدق فكرى فيه النظر وقال :

— وهل سقت بهذه السرعة ؟

سقت بها آلاف المرات فى شارع الهرم ومصر
الجديدة ، ومعى صديقتاى الحسان « السبور » اللاتى
لا يخشين شيئاً

فأجاب فكرى بلهجة جازمة :

— هذا جنون . جنون مطبق . وأنا لا أصدق ذلك .

فقال كامل على الفور فى لهجة الساخر :

— الجنون المطبق هو أن يقتل الانسان نفسه نظراً
إلى السيدات ، وهن لا يأبهن له ، ويدعى الجمال وهو
صفر منه

فاحتد فكرى وقال :

— ماذا تقصد بقولك هذا ؟

وغمز كامل بعينه لمراد . ثم اندفعا يقهقهان . وقال كامل

— إن صديقنا فكرى سقط فى امتحان الهيئة عند

السيدات .

فقال فكرى وهو يحاول كتم غيظه متظاهراً بالهدوء :
— يظهر أنك تعتقد فى نفسك أنك أصبحت دون
جوان عصرك ولكنك لو . .

فقاطعه كامل قائلاً فى زهو و يقين :
— معلوم . وهل ينكر أحد ذلك ؟
فلم يستطع فكرى أن يضبط عواطفه وانفجر يقول :
— كذاب . وألف مرة كذاب . . . أنا أول من
ينكر ذلك .

ونظر مراد إلى فكرى نظرة حادة ، ثم نفخ سيجارته
وقال فى لهجة خشنة متزنة :
— ما هذه المهاترة يا فكرى . أنسيت أين أنت ومع
من تجلس ؟

وقال كامل فى هدوء ، مخاطباً فكرى :
— عندى مائة برهان وبرهان على أنى دون جوان
عصرى . ويمكننى فى هذه اللحظة أن أعرفك بعشر من
حسان السيدات الجالسات هنا فى هذا المكان . انى مستعد

ولكنى لا أتحمل تبعة إعراضهن عنك وسخريتهن منك ..
أما أنت فما عندك ؟ . قل . . قد تم ان أمكنك برهاننا واحدا .
فارتبك فكرى ، وجعل يتكلم فى اختلاط منددا
بأخلاق صاحبه . وكان كامل يحببه باجابات محكمة فيها كثير
من السخرية والتهكم . أما مراد فكان يراقبهما فى ترفع
وهو يقهقه فى وقار قهقهته المتزنة .

— ٢ —

عاد فكرى إلى منزله ، وهو مضطرب الفكر ثائر
الأعصاب . وما إن دخل حجرته حتى وقف أمام المرأة
وجعل يطيل النظر فى نفسه ، وهو يفكر فى ذلك الحظ
السىء الذى يلزمه مع السيدات . انه ليس دميما منفرا .
صحيح أنه ليس وافر الحسن . ولكنه جذاب الملامح
وخفيف الدم وأنيق . . كذب ما يشيعه عنه أصدقاؤه .
انهم يغارون منه . انهم يخشون مزاحمته . .

وترك المرأة وجعل يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، ثم
نادى الخادم الصغيرة لتأتيه بكوب ماء بارد . انه يحترق

كالأتون. وجاءته الخادم بالماء ، فأكاد يأخذ الكوب منها حتى قذف به في وجهها محتدا وهو يقول :
— أهذا هو الماء البارد الذي طلبته منك ؟ وما هذا الكوب الذي لا تطاق رائحته ؟

وخرجت الخادم تمسح وجهها وهي ترتعد خوفا . وعاد فكرى يذرع أرض الغرفة وهو يزجرها نجا . وبعد حين رمى بجسمه على السرير ، ثم أغمض عينيه واسترسل في أحلام غريبة .

— ٣ —

ومرت على هذه الحادثة خمسة أيام ، وعاد الصفاء بين فكرى وصديقيه . والتقى الثلاثة في حديقة جروني كالمعتاد وكان أكثرهم ابتهاجا في هذه المرة فكرى . ولكنه كان يبدو عليه في الوقت نفسه انفعال غريب لم يخف على أحد ، وبعد أن انتهى الثلاثة من تناول شرابهم قام فكرى وأخذ يبحث صديقيه ليصحباه إلى دار البريد .
فما إن وصلوا حتى استأذن منهما ، وقصد إلى شباك

البوستان . وبعد برهة عاد في يده خطاب أخذ يفض غلافه
في عناية ، ويديه ترتجفان . وهو مشرق الوجه لامع
العينين . وكان الغلاف صغيراً سماوى اللون رشيقة ،
فأخرج منه فكرى رسالة سماوية اللون أيضاً مزركشة
الأطراف تطاير منها عطر الياسمين فملاً جو المكان .
فقال كامل مداعياً :

— الله الله . هذه روائح الحب تتطاير من الخطاب .
يظهر أنى سأغير رأيى فيك يا عزيزى فكرى .
فازداد وجه فكرى إشراقاً . وقال مراد وهو يتسم
ابتسامته الرزينة :

— هذه أسرار ليس من حقنا الاطلاع عليها .
فقال فكرى :

— وهل أخفى عن صديق سرّاً ؟
فقال كامل :

— إذن ممن جاءتك هذه الرسالة يا بطل ؟
وتطلع إلى الرسالة قبل أن يأذن له فكرى بذلك

ولكن فكرى لم يعارض ، بل سمح لصديقه أن يطلع
عليها عن طيب خاطر . وصرخ كامل مظهرأ دهشته :
— يا ابن الآيه .. ابنة المرحوم مهفوف باشا ..
ثم هجم على فكرى ، وأمسك يديه ، وجعل يهزهما
بشدة ويقول :

— برافو فكرى برافو . أهنتك من كل قلبى . هكذا
فليكن الرجال وإلا فلا ..

وأخذا يتصايحان فى ضجة . وبعد حين مال فكرى
على صديقه وقال هامساً :

— لا مؤاخذه ، إذا تركتكم الآن ..

ثم غمز بعينه ، وأشار إلى الخطاب ، وسلم عليهما
وتركهما وانصرف .

— ٤ —

لم يذهب فكرى الى ميعة الغرام كما أوهم رفيقه ، بل
قصد الى منزله . ودخل غرفته ووقف أمام مرآته وقلبه
يفيض سروراً وانتصاراً . ثم نادى خادمه الصغيرة وطلب

منها كوب ماء . فجاءته به على عجل وهي تتوقع أن ينهال عليها صفعاً وركلاً بلا سبب كما عودها . ولكن عظمت دهشتها إذ وجدته قد لطفها ، وهش لها وبش ، وأخرج من جيبه قطعة من النقود ، وأعطائها إياها وهو يقول :
— هذا بقشيش لقيامك اليوم بواجبك في الخدمة

خير قيام .

ثم أخذ يياسطها في الكلام وقتاً ما . وأخيراً صرفها . وجلس أمام مكتبه جلسة الشاعر المفكر . وأخرج من الدرج صندوقاً من الرسائل السماوية اللون المزركشة الأطراف . فتناول منه إحداها ثم جعل يكتب في تأن واتقان ما يأتي :

حبيبي ومعبودي فكري .

يعجز قلبي عن وصف ما شعرت به من السرور حينما قابلتك اليوم في حديقة الجزيرة . فقد كدت أنسى نفسي معك وأنت تحدثني بعذب كلامك ، وتنظر إلى بعينيك الساحرتين ، لقد كانت تلك اللحظة التي أمضيتها معك

أشهى وقت أمضيته في حياتي ، لأنني عرفت فيها قيمة
الحب . والحب ثمرة الحياة الشهية وعصيرها الذي لا يملأه
أحد . دعني آمل أن أراك دائماً لأمضي الحياة بين ذراعيك

المحبه

زكيه

(كريمة المرحوم مهفوف باشا)

* * *

وختم فكرى الرسالة بعد أن عطرها بعطر الياسمين .
ثم كتب على الغلاف العنوان الآتى .
عزيزى المحترم احمد بك فكرى

يحفظ بالبوسته

مصر

ونام فكرى في هذه الليلة نوماً هادئاً مشبعاً بأحلام
لذيذة لم يستمتع بنوم مثله في حياته كلها !!

سبب تعارف

سبب تعارف

وقف سليمان افندى أمام أحد المنازل فى شارع
محمد على ، ورفع بصره إلى الياضفة الكبيرة المعلقة على
الشرقة ، المكتوب عليها بالخط الثلث والرقعة :

الدكتور نجيب شافعى

طبيب وجراح وحكيم عيون

العيادة من ٩ — ١٢ صباحاً ومن ٤ — ٦ مساءً

وابتسم ، وأخرج ساعته فوجدها السادسة ، فأسرع
الخطا ، ودخل المنزل ، وأخذ يصعد درجات السلم أربعاً
أربعاً ، وقد تأكد من وصوله متأخراً ، ووقف أمام باب
العيادة وهو يصلح هندامه ، ثم قرع الجرس ، ولم تمض
برهة وجيزة حتى فتح الباب

دخل سليمان افندى وسار وراء الخادم فى ممشى مظلم

رطب ، ثم عرج على اليمين إلى حجرة الانتظار ، فاذا بها حجرة واسعة معتمة مؤثثة بأثاث رث ، وجلس على مقعد من المقاعد بعد أن علم من الخادم أنه أول زبون جاء اليوم

مكث سليمان افندى برهة يقلب بصره في أنحاء الغرفة وهو ساجح في أفكاره ، ثم قام متمللاً وجعل يتسلى بالنظر إلى الصور المعلقة على الحائط ، وكان يصفر وينقرباً صابغه على عصاه الخيزرانية ، ثم ترك الصور وأخذ يسير في الغرفة ذهاباً وإياباً ، وأخرج ساعته فوجدها السادسة والنصف ، فصفق بعد أن أعياه البحث عن موضع الجرس ، ولما جاء الخادم سأله سليمان افندى :
— أين الدكتور يا حضرة ... الساعة السادسة والنصف ...

فابتسم الخادم وقال معذراً :
— إن الدكتور كان نائماً ، وقد أيقظته ، وهو الآن

يرتدى ملابسه ... خمس دقائق فقط ...
فنظر سليمان افندى الى الخادم ، وهو متحير حائق ،
وقال :
— الدكتور كان نائما ... هه ... أتوقظونه عندما
يحضر المرضى ؟

فابتسم الخادم فى خبث وقال :
— هذه هى العادة المتبعة هنا يا سيدى ...
وخرج الخادم ، واستأنف سليمان افندى السير فى
فى الغرفة ذهابا وإيابا . وهو ينظر بين فترة وأخرى إلى
الصور المعلقة على الحائط ... ثم أخرج ساعته فوجدها
السابعة ، فاحمر وجهه غضبا ، وُصفق بشدة مستدعيا
الخادم . ولما حضر صرخ فيه سليمان افندى قائلا :
— أريد الدكتور أن يقابلنى أم لا ؟
فقاده الخادم إلى حجرة الدكتور الخاصة التى يقابل
فيها المرضى وقال له :
— تفضل هنا يا سيدى ، سيحضر الدكتور حالا

ثم تركه وخرج ، ونظر سليمان افندى حوله فوجد
الحجرة أكثر نظافة من حجرة الانتظار ، بها منضدة
للعمليات وخزانة للآلات الجراحية ، وفي ركن من
الأركان مكتب صغير يكاد يكون مهملًا ، لمح سليمان
افندى كل هذه الأشياء وهو جالس على مقعده بالقرب
من مكتب الدكتور ، ثم تحرك في مجلسه حركة امتعاض
واحتقار ، وجعل يهز قدمه ، وبعد قليل فُتِح باب الغرفة
ودخل منه الدكتور نجيب شافعى الطبيب والجراح ،
والحكيم الاختصاصى فى العيون ، فقام سليمان افندى
مبتسما وسلم عليه وهو يقول :

— أظن أننى متشرف بحضرة الدكتور نجيب بك شافعى .

فابتسم الدكتور ، وأجاب بصوت خشن :

— نعم يا سيدى . أنا نفسى

وجلس على دقعد مكتبه وجعل يتشاءب بصوت بشع .

وكان وجهه محتقناً كثير التجاعيد ذا عيون حمراء منتفخة .

والتفت إلى سليمان افندى وقال له :

— أنا آسف إذ جعلتك تنتظرني طويلا :

— العفو يا دكتور . لم أنتظر إلا برهة وجيزة
أمضيتها على أحسن حال !

وكبح الدكتور كحة كريهة دامت بضع دقائق . فاشتد
احتقان وجهه . ونفرت عروق رقبته . ثم تابع حديثه
قائلا :

— لم أتشرف بحضرتك بعد

— سليمان السيد نجل عبد الله بك السيد المهندس
والخبير

— تشرفنا يا بك . هل حضرتك في المدارس العليا
أم تخرجت ؟

فارتبك سليمان افندى وقال متلعثما :

— أنا طالب في المدارس الثانوية . .

وصمت كلاهما برهة . ثم عاد سليمان افندى إلى
التكلم وقال :

— لقد تأخرت يادكتور فى الدراسة بسبب المرض.
لقد أصبت بالتيفوس والملاريا والحى الراجعة والقرمزية.
— لأحول ولا قوة إلا بالله . هذه أمراض جسيمة
أهنتك بشفائك منها ، ولكن لندخل فى الموضوع . هل
حضرتك مريض ؟ ومم تشتكى ؟

فاعتدل سليمان افندى فى كرسيه ، وأخرج علبة سجائره
وقدم للدكتور سيجارة ثم تناول لنفسه مثلها . ثم أخذ
يدخنان . وبعد برهة أخرج سليمان افندى بطاقة من
محفظته وقدمها للدكتور وهو يتسم .
فتناول الدكتور البطاقة وقرأ فيها :

سنيه زاهر

معلمة بيانو خصوصية

شارع الساحة رقم . . مصر

وظهرت عليه أمارات الدهشة وقال مداعبا :

— يظهر أن حضرتك تدرس البيانو مع الأنسة

سنيه زاهر

فضحك سليمان أفندى ملء شذقيه وقال بلا كلفة :
— أنا أجهل البيانو كما أجهل المعادلات الجبرية في
المدرسة يا دكتور .
ثم أدنى مقعده من الدكتور وقال له كأنه يسر
له أمرا :

— لقد امتدحتك الآنسة كثيرا
فقرك الدكتور عينيه وتنحج ، ثم قال :
— العفو ياسليمان بك ، العفو
فصمت سليمان أفندى برهة ثم قال :
— لم تقرأ يا دكتور ما هو مكتوب على ظهر البطاقة
فقلب الدكتور البطاقة ، وقرأ ما هو مكتوب على
ظهرها . وكان يتسم ويلعب بأحد أقلام المكتب . ثم
رفع نظره إلى سليمان أفندى وقال :
— طيب ياسيدى ، أنا فى خدمتك مادمت قد حضرت
من عند الآنسة سنيه

— مرسى

وأخذ سليمان بروى للدكتور كيف أن ناظر المدرسة
كتب لوالده يشتكى من كثرة انقطاعه عن المدرسة
وأنه سيضطر إلى فصله إذا تغيب مرة أخرى بلا سبب
وجيه . وكيف أن والده هدهه بالطرد من المنزل إذا
لم يواظب على تلقى دروسه

فابتسم الدكتور وقال :

— المسألة عويصة يا سيد سليمان . .

ثم قام من مقعده ودنا منه ، وقد أكسب وجهه بعض
مظاهر الوقار ، وأمسك برأس سليمان أفندى وقال له :

— لا تخف أريد أن أفحص عينيك . . انظر فوق ..

هكذا . . تماما . . لقد قلت انك أصبت بالتيفوس

والملاريا

فأكمل سليمان أفندى قائمة الأمراض الوهمية قائلا :

— . . والحمى الراجعة والقرمزية و . .

— يكفي يا عزيزي . . إن لبعض الحيات تأثيراً سيئاً

على العيون . وهذا ماألا حظه في حالتك .

— وهل عيني مريضة ؟
— أنت مصاب بالتهاب في غشاء الجفن الأسفل . .
— . . غشاء الجفن الأسفل ! . .
— يسبب لك تهيجاً في العين من وقت لآخر .
وهذا يضايقك كثيراً بلا ريب . ويتطلب عناية
دائمة .

— إذن العلاج سيستمر بلا انقطاع . .
وعاد الدكتور الى مكتبه في رزانه ووقار ، وبدأ
يخط على ورقة رسمية من أوراقه ما يأتي :
إن التلميذ سليمان افندي السيد نجل سعادة عبدالله بك
السيد المهندس والخير مصاب بلحمية مزمنة في الغشاء الجفني
الأسفل تضطره كثيراً الى لزوم حجرته وعمل المكمدات
الساخنة . وقد تغيب عن المدرسة يومى السبت والأحد
١٧ و ١٨ مارس لهذا السبب . فلزم كتابة هذه الشهادة
شرحاً لحالة المريض . الدكتور نجيب شافعى
طبيب وجراح وحكيم عيون

ثم ناول الشهادة لسليمان افندى - فقرأها بسرور ،
وقام وهو يردد الشكر للدكتور ، ولما مد يده للسلام
عليه قال له :

— ألا تتقابل فى القريب العاجل يادكتور ؟

— بكل سرور - أين تريد أن يكون ذلك ؟

— فى شارع الساحة رقم .. حيث نشنف سمعنا !

بألحان البيانو !

ففتح الدكتور الباب وقال له :

— اخرج يا خبيث . . .

منفل

مغفل

ذهبتُ إلى محطة سيدى جابر لأستقل منها القطار إلى القاهرة . وما كدت أدخلها حتى وقع بصرى على صديق شافعى وكان منهمكا فى قراءة رسالة لم أتبين ما فيها ، فلم يرنى ، واختبأت فى ركن لأراقبه ، إذ كان يلذلى ممازحته والأطلاع على أسرارهِ ، وشافعى صديق من أيام التلمذة ، معروف بسذاجته وقصر نظره فى أمور الحياة ، وله نواذر دثيرة اشتهر بها صغيراً وكبيراً ، له جسم ضئيل ووجه كوجوه الأطفال بعيون براقّة .

بدأت أراقب شافعى من مخبئى ، فوجدته بعد أن أتم قراءة رسالته اجلس منها قبلة حارة ثم أودعها فى جيبه ، وتطلع إلى ساعة المحطة ثم إلى ساعة يده ، وسار بخطوات سريعة غير منتظمة . وكانت تصدر منه بعض حركات وإشارات عارضة غاية فى الغرابة . وأخذ يقطع الرصيف

ذهاباً وإياباً. وبغته بدرت منه حركة شاذة، وأخرج المونوكل على عجل، وركزه على عينه، ثم ابتسم وتابع سيره وهو يتطلع إلى ساعة المحطة وإلى ساعة يده. وبعد قليل وقف وأخرج الرسالة وقراها بشغف، ثم أودعها قبلة خاطفة وأرجعها إلى جيبه. وعاد يقطع الرصيف بخطوات شاردة لا انتظام فيها

وتركت مكنتي، وقد وجدت شافعي يخرج الرسالة من جيبه ليلتوها ويقبلها، فباغته في خفصة من الخلف وخطفتها. فالتفت إلى غاضباً وهو يزجر. ولما تبينني قال: — أهو أنت! هذا هزاز ثقيل جداً يا عباس. خصوصاً في هذه المسائل

ومد يده في شكل صياني، وحاول استرداد الرسالة مني، فأرجعت يده في حزم إلى موضعها، ونظرت إليه نظرة توبيخ وقلت:

— كن رجلاً. ما هذه الأعمال؟
فوقف أمامي وقفة التليذ الغاضب المقهور وقال:

— قلت لك هذه مسألة خصوصية .
— وهذا ما يزيد رغبتى فى الاطلاع عليها
وأمسكت بيد واحدة يديه كليهما . وبدأت أقرأ
الرسالة فى هدوء فاذا بها برقية فيها ما يأتى :
شافعى بك بكازينو سان استفانو بالرمل .
« احضر اليوم . المقابلة فى ميدان لازوغلى الساعة
الرابعة . أقبلك ألف قبلة »
ف
فكان شافعى يحاول التخلص من يدي ، ويقول
مدمدما :

— أقسم بالله لن أكلبك ولن أعرفك بعد هذه العملة .
وسمعا جلجلة القطار . وعلت الجلجلة من كل جانب
فوضعت الرسالة فى جيبى وأخليت سبيل شافعى . واهتم
كل منا بامتعته

واخترت ديوانا خالياً فى الدرجة الأولى ، وجلست
فيه مرتاحا وأنا أبتسم . وبعد قليل جاء شافعى وهو مغيظ
يحفف عرقه وقال :

— لقد بحثت عنك في الدرجة الأولى كلها وفي عربية
بولمان .

فأشعلت سيجارة وقلت له

— ولماذا لم تبحث في الدرجة الثالثة ؟

— قلت لك لن أكلبك ولن أعرفك بعد الآن .

— وما الذي دعاك لأن تبحث عني ما دمت

لا تريد معرفتي ؟

فمد لي يده ، وقال :

— هات الرسالة

— هون عليك قليلا . إن الله مع الصابرين .

اجلس أولا

ودفعته في لطف على المقعد الذي أمامي ، فجلس

طائعا وقال :

— وهل تعطيني الرسالة ؟

— بلا شك . . إنما نريد أولا أن نتفاهم . . .

وأدريت وجهي من وجهه وهمست قائلا :

— أقسم بالله لم أكن أتوقع ذلك الأمر منك مطلقاً
يا شافعى .. برقية غرام وميعاد على قارعة الطريق ..
هذا فظيع !
ثم ناولته سيجارة ، فقبلها على الفور ، وتابعت
حديثي قائلاً :

— لقد كنت تضحك على ذقوننا عندما كنت
تتظاهر أمامنا بالرزانة والاستقامة والحقيقة أنك من
أخبث الخبثاء
فابتسم وقال :

— أوه .

— اطلع من دول .

وزعدته فى جنبه وقلت :

— منذ كم شهر يا بطل ؟

فقهقه وقال بعد تردد لم يدم طويلاً :

— منذ ثلاثة أشهر

— حبيب قرارى صحيح .

فقتل شاربہ الأصفر الصغير . وجلس جلسة فيها
شيء من العظمة والاعتداد بالنفس ، ومد يده وقال :

— أعطني الرسالة يا عباس

— بكل ممنونية .. ولكن على شرط

— وما هو ؟

— أن تطلعي على التفاصيل

فقط شفتيه وابتسم ، ثم قال وهو ينظر إلى سماء الحجرة :

— ليس هناك تفاصيل

فقميت على الأثر وقد تظاهرت بالغضب وقلت له :

— آه . لا تحاول أن تقنعي بأن قصة غرامك خالية

من المغامرات .. لن تضحك عليّ بعد الآن .

فابتسم ابتسامة كبيرة وقال :

— أنت صديقي الودود ، فلن أخفي عنك سرّاً ..

إنما ...

— إنما سرّك في برّ . كن مطمئناً

وناولته سيجارة ثانية ، وأخذت لنفسى أخرى .

وبدا شافعى يحدثنى فى استفاضة ودقة عن قصة غرامه ..
واندفع يصف لى محبوبته فى أوصاف خلافة ، ويروى لى
تتفاً من أحاديثها مقلداً لى لهجة صوتها ورنين ضحكاتها ،
وكثيراً من حركاتها وإشاراتهما . وأخيراً أمسك يدى
بشدة . وقال :

— فى كل مرة أقابلها أمسك يدها بين يدى ، وأنهل
عليها تقييلاً . هكذا .

وهوى على يدى يقبلها فى شغف غريب ، ولما رفع
رأسه وجدت عيونته ندية فقلت له وأنا الأطفه :
— هوتن عليك .. إن المحب دائماً فى عذاب ..
ولكن عذابه لذيد . ا

فقال وهو يمسح عينيه :
— صحيح .. عذابه لذيد ... لذيد جداً ...
وأخيراً ناولته الرسالة ، فطواها فى احتراس ووضعها
فى محفظة نقوده ، وعدنا تتكلم . فطرقنا مواضيع مختلفة ،
ولاحظت على شافعى تغييراً محسوساً ، فقد انطبعت على

محياء الطفل مظاهر العظمة الكاذبة ، فعقد ما بين حاجبيه
واتخذ هيئة خاصة في نفخ دخان سيجارته . وأكسب
صوته بعض الخشونة ، وكان يكثر من الكلام في الشؤون
الغرامية وهو يغمز لى بعينه ويتنحى ، ويزغدى ثم
يقهقه ضاحكا بلا مناسبة . وكان يورد النكتة الخالية
من أى ملاحظة ، ثم يصيح مهلا ضاحكا في جلبة عظيمة ،
و كنت أجاريه في سخافاتى حتى وصلنا محطة « بنها » فانتبه
لنفسه وقام على الفور وقال :

— عن اذنك بضع دقائق .

وفتح الباب ، واستدعى خادم القطار ، وأشار له إلى
حقيبة من حقائبه وقال :

— اسبقنى إلى محل التوالى . وجهز لى منشفة نظيفة .

وخرج الخادم حاملا الحقيبة ، وشافعى يتبعه
ولما اقترب القطار من شبرا عاد صديقى . وكان قد
غير بدلتة وأتم زينته ، وأكثر من العطر . دخل يخطو
فى هوادة وهو يتسم . فقلت له على الفور :

— من يراك هكذا يقل إنك عروس في ليلة دخلته .
— أرجوك ...

وتقدمت منه وقلت :

— اقرب مني لأعانقك . لعلى أكتسب شيئاً من
رشاقتك وأناقتك

وعانقته وقبلته ، فأمسك يدي ووضعها على قلبه وقال :
— ألا تشعر بشيء . . . إن قلبي يحترق !
— تشجع يا صديقي .

وافترقنا عند باب المحطة . وركبتُ سيارة إلى
منزلي . وفي الساعة السادسة مساء خرجت قاصداً جروني ،
ولمحت شافعي جالسا بمفرده بعيداً تحت الشجرة الكبيرة
وكان يحرق في أغصانها وعلى فمه ابتسامة اغتباط
ساذجة تعبر عما يجول في خاطره من أحلام وآمال .
فقصدته على الفور وبادرته بقولي هامساً :

— والألف قبله يا بطل ؟

— ولا واحدة !

— كيف...؟

— لم أحظ إلا بنظرة واحدة

فصرخت قائلاً :

— نظرة واحدة فقط . أهذا ممكن ؟

فجعل يكرر وهو يشد على يدي في صدق وتأكيد :

— والله نظرة واحدة فقط !

وأخذ يروي لي كيف أنه انتظر مرور سيارتها في

ميدان لاظو على ساعة كاملة . ولما مرت السيارة لمح داخلها

طيفها الجميل يلوح له بمنديل ، واختفت السيارة على الأثر

وعاد هو إلى جروني ، ولم يفارق مجلسه منذ ساعتين ،

وسيعود إلى الإسكندرية بقطار السابعة ونصف . ثم ختم

حديثه وهو يتنهد قائلاً ووجهه يفيض بالبشر والتأثر :

— الغرام يتطلب توضيحات يا عباس ولكنه لذيذ ،

لذيذ جداً

ثم عاد يحرق في أغصان الشجرة وهو يتسم في تبلد

غريب ، أما أنا فكنت أحاول عبثاً كتم ضحك خشيت

أن انفجر فيلفت إلينا أنظار الجالسين ..

تم الكتاب
ويليه
قلب غانية
وقصص أخرى

فهرس الكتاب

٣	كلية تصدير
٥	حاجتنا الى الفن
٣١	عم متولى ...
٤٧	ضريح الاربعين
٧١	الشيخ جمعه ...
٧٩	مهزلة الموت
٩٥	بنت الجيران
١٠٩	الله يرحمه ...
١١٧	القلم الابنوس
١٢٧	الاجرة ...
١٣٥	اب وابن ...
١٥٥	يحفظ في البوستة
١٦٧	سبب تعارف
١٧٩	مغفل ...

تم طبع « كتاب الوثبة الأولى »
في يوم الاثنين ١٥ فبراير سنة ١٩٣٧
بدار النشر الحديث
« مطابع احمد الصاوى محمد » بالقاهرة

ما ظهر من مؤلفات محمود تيمور

كتاب الحاج شلى

وقصص اخرى

تولت طبعه ونشره لجنة التأليف والترجمة والنشر . بشارع الكرداسى
رقم ٩ بشارع عبد العزيز . بالقاهرة . بمصر . وثمن النسخة خمسة قروش .
والكتاب مصدر بمقدمة للأستاذ الفاضل الدكتور شاده . وهى نص
المحاضرة التى ألقاها عن المؤلف بمؤتمر المستشرقين بأكسفورد عام ١٩٢٨ .
ومنتهى بخاتمة للكاتب الفاضل الأستاذ سلامة موسى وهى نص الخطبة
التي ألقاها عن المؤلف فى حفلة جماعة « المصباح الخافت » عام ١٩٢٨ .

كتاب الوثبة الأولى

ظهر حديثا . ويحتوى على المختار من قصص المؤلف التى ظهرت فى مجموعاته
الثلاث القديمة : الشيخ جمعه . وعم متولى . والشيخ سيد العبيط . بعد أن هذب
بعضها وألف البعض الآخر من جديد . والكتاب مصدر بمقدمة عن « حاجتنا
الى الفن » وهى نص المحاضرة التى ألقاها المؤلف فى رابطة موظفى الحكومة
يوم ٢١ يناير ١٩٣٧

وثمن النسخة ستة قروش .

أبو علي عامل ارتست

وقصص اخرى

يحتوى على مجموعة من الاقاصيص المصرية مذيلة بقصة طويلة
والكتاب مصدر بكلمة للأستاذ الفاضل الدكتور ويدمار . وهى مأخوذة
من مقدمة كتابه الألمانى الذى ترجم فيه بعض قصص المؤلف .
وثن النسخة خمسة قروش

كتاب الأطلال

رواية مصرية مذيلة ببعض أقاصيص

ثن النسخة خمسة قروش

كتاب الشيخ عفا الله

وقصص اخرى

مجموعة من القصص المصرية .

ثن النسخة خمسة قروش

نشوء القصة وتطورها

وهي نص المحاضرة التي ألقاها المؤلف في
قاعة يورت بالجامعة الأميركية سنة ١٩٣٦.
ثمان النسخة قرش صاغ واحد

قلب غائبة

وقصص أخرى

بمجموعة جديدة من القصص المصرية
للمؤلف . تصدر في شهر مارس
سنة ١٩٣٧

فرعون الصغير

وقصص أخرى

بمجموعة جديدة من القصص المصرية
للمؤلف . تصدر في أوائل عام ١٩٣٨

جميع هذه الكتب تطلب من المؤلف

محمود تيمور

٦ شارع الأمير حسين

الزمالك . القاهرة . مصر

وكذلك من جميع مكاتب القطر الشيرة وبالأخص من :

مكتبة النهضة المصرية بشارع المدايح رقم ١٥ بالقاهرة

» الانجلو المصرية » قصر النيل رقم ٣٣ »

» الوفد » الفلكي رقم ٥٣ »

» الهلال » الفجالة رقم ٦٥ »

» أمين هندية » ميدان سوارس »

المكتبة التجارية لصاحبها مصطفى محمد بشارع محمد علي رقم ٢٠٠ بالقاهرة

دار النشر والتأليف لصاحبها محمد افندي مرسى

بشارع ابراهيم باشا رقم ١٤ بالقاهرة

مكتبة فيكتوريا بشارع زغلول باسكندرية

